فن المقامة في الأدب العربي الجزائري
خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

أ.د. عمـــر بـــن قينـــة

أستـــاذ الأدب الحديـــث

بجامعتي الجزائر وقطر

فن المقامة في الأدب العربي الجزائري خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

أ.د. عمـر بن قينـة
أستاذ الأدب الحديث
بجامعتي الجزائر وقطر

خلاصـة البحـث

يعالج البحث واقع المقامة في النثر الجزائري خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بمنهج تاريخي وصفي تحليلي .

فتركز الحديث في القرن التاسع عشر عن تجربتي (الأمير عبد القادر الجزائري) و(محمد بن عبد الرحمن الديسي) فبدت الأولى ذات ظلال صوفية عكست مرحلة من حياة (الأمير عبد القادر) ومحيطه الخاص، أما الثانية فقد نحت نحواً أدبياً رومانسياً مع جنوح إلى الرمز لتصوير مآل الثقافة والمثقف، تحت الاحتلال الفرنسي في (الجزائر) يومئذ .

أما في القرن العشرين فقد تميّز فن المقامة بتجربة (عمر بن بريهمات) بطابعها التاريخي الثقافي وتجربة (محمد صالح خبشاس) بظلالها الإصلاحية التربوية، بينما غلبت السمة الأدبية الوصفية الخالصة على تجربة (محمد البشير الإبراهيمي) .

وقد عكس هذا النوع من ملامح المرحلة تاريخياً وسياسياً وثقافياً، كما عكس المستوى الأدبي الذي تقدم خطوات معتبرة في القرن العشرين عن القرن التاسع عشر .

* * *

SUMMARY STUDIES ON: "THE MAQAMA" THE MAQAMA IN THE LIGHT OF THE ALGERIAN ARABIC LITERATURE AROUND THE 19TH CENTURIES.

Prof. Omar Bin Quinna
Prof of Modern Literature
University of Algeria & Qatar

Abstract:

The methodology seeks to treat the events in the study of "The Maqama" within the historical and analytical context of the Algerian prose around the 19th and the 20th Centuries respectively.

The present paper is based on the 19th Century within the context of Al Amir Abdul Qadir Al Jazairi and Muhammad Abdul Rahman Al Daisy. I began the first under the shadow of Sufism, contrary to the latter stages and territories in the life of Al Amir Abdul Qadir. As for the second, my inclinations were towards the Romantic Literary mythology, with reference to the intellectual and cultural perspective under French rule at that time.

In the 20th Century the distinguished work on the Maqama by Umar Bin Buraihimat with his publications were based on historical and cultural dimensions. Attempts were being made by Muhammad Salih Khabshas under its shadows to enhance education whereas Muhammad Bashir Al Ibrahimi based his attempts on the literary aspect. These changes became evident on the historical, political and cultural stages. The level of changes became apparent around the 20th Century more than the 19th Century.

(١)

إن واقع المقامة ومستواها عموماً كنوع أدبي في (الجزائر) لا يكاد يختلف كثيراً في القرن التاسع عشر والعشرين عن القرن الثامن عشر، رغم أن القرن التاسع عشر يُعد من أفقر الفترات في الكتابة الأدبية، لكن (أدب المقامة) فيه بقي حاضراً رغم فقر القرن، وربما بدت فيه تجربتا (الأمير عبدالقادر الجزائري) أولاً، و (محمد بن عبدالرحمن الديسي) ثانياً: من النماذج الجيدة، فهما تجربتان رائقتان بظلالهما الأدبية الطلية، والروح الإنسانية الجميلة فيهما معا، تجربة الأول (صوفية) روحية خالصة ،وتجربة الثاني أدبية فكرية عذبة، في مقامتين اثنتين أدبيتين له .تجربة (الأمير عبدالقادر): (١٨٨٢-١٨٠٧)

لم يضع (الأمير عبدالقادر) عنواناً لمقامته، بل أسماها «شبه مقامه [١]» هكذا نصا، وقد أثبتها في مطلع المجلد الأول من كتابه «المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد» وهي ذات قسمين: أولهما نثري وهو جوهر المقامة، وثانيهما شعري تكميلي للصورة، يعمق الجانب الأول، ويؤكده، وهو أكبر مساحة (٢٧١ بيتاً) .

وقدم الكاتب (مقامته) بلغة مباشرة تفصح عن مضمونها، تعلن رؤية الكاتب ورأيه، وموقفه الديني من الموضوع، ومن المعترضين عليه، قائلاً في سياق تقديم للكتاب كله: «هذه نفثات روحية، وإلقاءات سبوحية، بعلوم وهبية، وأسرار غيبية، من وراء طور العقول، وظواهر النقول، خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر في كتاب، قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا، إذا لم يصلوا إلى اقتطاف ثمراتها، تركوها في زوايا أماكنها، إلى أن يبلغوا أشدهم، ويستخرجوا كنزهم، وما قيدتها لمن يقول هذا إفك قديم وأساطير الأولين، ويحجر على الله تعالى، ويقول أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا من علماء الرسم،

القانعين من العلم بالاسم، فإننا نتركهم وما قسم الله تعالى لهم، فإذا أظهروا لنا ملاماً، تلونا: [وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما] ونعيرهم أذنا صماء، وعينا عمياء، ونقول لهم آمنا، بالذي أنزل علينا، وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون، ولا نجادلهم، بل نرحمهم ونستغفرلهم، نقيم لهم العذر من أنفسنا في إنكارهم علينا، إذ جئناهم بأمر خالف لما تلقوه عن مشايخهم المتقدمين، وما سمعوه من آبائهم الأولين، فالأمر عظيم، والخطاب جسيم، والعقل عقال، والتقليد بال، فلا عاصم إلا من رحم ربي .

وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم، ولا الحكيم المعلم، لكن طريقة توحيد الكتب المنزلة، وسنة الرسل المرسلة، والتي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين، والصحابة والتابعين، والسادات العارفين، وإن لم يصدقوا الجمهور والعموم، فعند الله يجتمع الخصوم»[٢] .

وقد انطلقت (المقامة) بحديث الراوي، وهو في البدء صيغة ضمير المتكلم، وتبعا للسياق هو (الأمير) الذي يعلن نفسه في آخر فقرة من (المقامة) باسم (عصام) لكنه لم يكد يمضى قليلاً في البداية حتى أشرك معه في الرواية شخصية أخرى سرعان ما تنهض (بالبطولة) هي شخصية (العريف) الذي قدمه الراوي الأول كما يقدم أحيانا (عيسى بن هشام) البطل (أبا الفتح الاسكندري) فإذا قال (عيسى بن هشام) مثلاً في (المضيرية): «كنت بالبصرة ومعي أبو الفتح الإسكندري رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه والبلاغة يأمرها فتطيعه، وحضرنا دعوة بعض التجار»[٣] فقال الأمير عن (العريف) إنه «عريف الجماعة، ومقدم أهل البراعة»[٤] فقد أسند إليه دور (أبي الفتح) البطولي متلمسا عنصر التشويق، وإثارة الفضول من البدء هكذا: «حضرت محاضرة من محاضرات الشرفا، ومسامرة من مسامر الظرفا، في ناد من أندية العرفا، فجاءوا في سمرهم بكل طرفة غريبة، ومستظرفة عجيبة، وكان الحديث شجونا، ألونا وفنونا، إلى أن تكلم عريف

الجماعة، ومقدم أهل البراعة، قال: أحدثكم بحديث هو أغرب من حديث عنقاء مغرب، اشرأبوا لسماعه، ومدّوا أعناقهم، وفرغوا قلوبهم، وحدّقوا أحداقهم)[٥].

وهنا ينحرف الكاتب بوظيفة بطله، إلى راو، كحال (عيسى بن هشام) تماما حين يخلف (أبا الفتح) في البطولة، كما فعل في (البغدادية) مثلا، فيعلن (عريف الجماعة) لدى الأمير استعداده لرواية الوصول إلى (المعشوقة) هي (الذات الإلهية) قائلاً: «إن في الوجود معشوقة غير مرموقة، الأهوية إليها جانحة، القلوب بحبها طافحة، والأبصار إلى رؤيتها طامحة، يطير الناس إليها كل مطار، ويركبون الأخطار، ويستعذبون دونها الموت الأحمر، ويركبون لطلبها المكعب الأسمر[*] ولا يصل إليها إلا واحد بعد الواحد، في الزمان المتباعد، فإذا قدر لأحد مشارفة أسوارها، ومقاربة مرماها، ألقت عليه اسكترا لاله مادة ولا مدة، لا هو عين معتدة، فيحصل انقلاب عينه، وجميع الأعيان في عينه، إلى عين هذه المعشوقة، التي هي غير مرموقة، المعلومة المجهولة، المغمورة المسلولة، الباطنة الظاهرة، المستورة الساترة، الجامعة للتضاد، بل ولجميع أنواع المنافاة والعناد، ولا يقدر أن يعبر عنها بعبارة، ولا يشير إليها بإشارة، أكثر من قوله: أني وصلتها وحصلتها، وبعد التعب والعنا، ومعاناة الضنا، وجدت هذه المعشوقة، أنا!! ويتبين لي أنني الطالب والمطلوب، والعاشق والمعشوق !! فما كان هجري للذاتي، إلا في طلب ذاتي، ولا كانت رحلتي، إلا لنحلتي، ولا وصولي إلا إلى، ولا تفتيشي إلا عليّ، ولا كان سفري إلا مني في إلي !! فيقال له: هل رأيت محياها، وشممت رياها، حتى قلت أنا إياها ؟! فيقول: رأيت، وما رأيت، وما رميت إذ رميت ويأتي بأوصافها بما تنبو عنه العقول، ولا تحتمله ظواهر النقول، ما طرق الأسماع، ولا طمعت في فهمه الأطماع، يرفع الضدين تارة، وتارة يجمعها، ويجمع النقيضين ويضمهما، فيقال له: هذا الذي تقوله: ثبت عندك بدليل أو برهان ؟! فيقول: لا دليل بعد عيان :

وكيف يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل ؟!

فيراجع فلا يرجع، ويغلط فلا يسمع، وحينئذ، يحكم الناس عليه بالجنون والعته والسفه والبله، ويجهّلونه ولو كان أعلمهم، ويسفّهونه ولو كان أحلمهم، ويستبيحون منه العرض، في الطول وفي العرض، ويجعلونه مرمى غمزهم ولمزهم، ونبزهم ووكزهم، يهجره الحميم العاطف، ويقليه الصديق الملاطف، وهو مع هذا ناعم البال بما لديه، قرير العين بما حصل بين يديه، لايلتفت إلى قطعهم وهجرهم، ولا يبالي بلوغهم فيه وهجرهم !!» .(٦)

وهنا ينتهي دور (العريف) لتخلفه شخصية (الراوي) الثاني (عصام) وهي شخصية الأمير نفسه، فتتحول إلى شخصية بطلة، تنهض بالمغامرة، أو الرحلة الروحية لإدراك الحقيقة الإلهية كما رمز إليها (الأمير) على لسان (العريف) باسم (المعشوقة) فأعلن عزمه على خوض الغمار للوصول إلى كل ما يمكن من حقيقة ذلك: حقيقة أو مجازاً، مستهينا في سبيل ذلك حتى يدفع مهجته، يموت، فيعذر، ولا عليه إن لم يقبر، فهو قد وطّن نفسه على المكابدة، ومواجهة العواصف، واختراق الآفاق المجهولة، وخوض عباب الأمواج العالية، معتمداً العون من الله، غير مبال بما يلقى من عنت وأهوال في مكابدة التجربة الروحية التي تتكئ على ظلال مادية لتقريبها من الأفهام، قائلاً منذ البدء وهو يعلن عزما أكيدا على الموت في سبيل الوصول إلى حقيقة (المعشوقة) أو مجازها، ليمد بها أصحابه التواقين للعيش في هذا الوجد الروحي المشرق عبر العيش في الحقيقة الإلهية التي قد لا يدركها عقل، لكنه يدركها ذوق دقّ ورقّ، ويتشبع بها عمقاً روحيا ساميا: «فلما تمت القصة واجتليت عروسها على المنصة، وما كاد أن ينقضي إعجابنا منها، واستغرابنا لها، فقلت لهم: ياقوم ألستم تعلمون أني طلاع الثنايا ؟ وسباق الكتيبة إلى معترك المنايا ؟ فأنا آتيكم بحقيقتها ومجازها، وأفك لكم المعمى من ألغازها، أو أموت فأعذر، ولا علي إن لم أقبر ! فقال لي بعض المستبصرين من الحاضرين، وكان ممن جرّب

هذا الأمر، وفّر عن تجربته الدهر إن صدقت لهجتك، وهانت عليك مهجتك، وأردت الوصول إلى ذلك الجناب، وقطع تلك الجبال والبحار والهضاب، فاركب نسرا أو غرابا وأنه لا ينال ما قصدت، إلا من كان على الهمة قوي العزمة .

إذا هم ، ألقى بين عينيه عزمه   ونكّب على طرق العواقب جانبا
ولم يستشر في رأيه غير رمحه   ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

لا يصرفه صارف، ولا تحركه العواصف، حلس من أحلاس الخيل ملّهُ النهار والليل، أسد في شجاعته، خنزير في حملته، كلب في وقاحته، أذنه صما عن العاذل، وعينه عميا عن الهاجر والواصل، وطريق مطلوبك طامسة، وأعلامها دارسة، بحرها تيار، وهواؤها نار، وأرضها مفاوز قفار، أسدها كواسر، وأعوالها عن أنيابها حواسر، مهامه فيج جاهل، العارف فيها جاهل، والدليل الخريت بها حائر، والتيه فيها هلاك حاضر .

فقلت له: جهتها أي الجهات ؟ فقال لي هيهات هيهات !! لا يستفهم عنها بمتى ولا أين، ولا يرشد إليها أثر ولا عين، فاعتمدت على الواحد الأحد، لا ألوي على أحد، فمررت في طريقي، على فرق من فريقي، فرأيتهم بين سادم باهت، لاهو بالحاصل ولا الفايت، وبين حائر واقف، التبست عليه المواقف، وبين غريق في لجج تلك البحار، وتايه في تلك المفاوز القفار، وبين من نقبت راحلته، وآخر دبرت زاملته، وبين من يدبّ دبيب النمل، حافيا بلا نعل، مررت على جماعة منهم في بعض المشاهد فأنشدوا لي قصيدة فيها نحو العشرين بيتا ، رجعت إلى الحس ببيت واحد منها ، وهو :

أيا من نحن في تعب الجبال   وهو يخوضها ولا يبالي» (٧)

وكي يمهد الكاتب للذة الكشف، يحرص على أن الطريق إلى ذلك موغل في البحث، موحش في الرحلة، ذو ضنى في المكابدة والمغامرة، كمن يمتطي نسراً، أو غرابا ، وهو جهد ضروري في معاناة (الوصول) و (الإدراك) بالفكر الذوقي القائم على الفطرة، لا المنطق

العقلي القائم على التحليل والتعليل، لأن الحقيقة الصوفية التواقة للذوبان في الذات الإلهية تستعصي على العقول الجبارة، فهناك الحقيقة الأكبر إذن، التي تعلو على كل (فلسفة) و(تفلسف) في عقول فضاؤها محدود وإمكاناتها قاصرة بطبيعتها في هذا الموضوع الذي يستعصى عنها كل الاستعصاء : (............ ومازلت ممتطياً صهوتي النسر والغراب، محملا نفسي كل مكروه، مستعذبا أنواع العذاب، لا تطمئن بي دار، ولا يستقر بي قرار، إلى أن ظهرت لي الأعلام، التي ظهرت لمن قبلي من الوافدين الأعلام، ونادى المنادي وحدا الحادي:

أبشر بوصل بهذه العلامات   كم طالبين، ودون الوصل، قد ماتوا

وألقى عليّ ما ألقى عليهم، وثبت لديى ماثبت لديهم، ولما وصلت حيث وصلوا، وحصلت على ما عليه حصلوا، طلبت الإباحة والجواز، وقد عرفت الحقيقة والمجاز، فقيل لي: لا تتخط رقاب الصديقين، ارجع فما وراء موقفك إلا العدم المحض، لا ثبات ولا ركض.[(٨)]

وهكذا يدرك البطل (طلاّع الثنايا) أن محاولة الإدراك الحسي لحقيقة الذات الإلهية، مضيعة وقت، كما هو حال من يريد الوصول عبر العقل إلى فلسفته، فلم يبق من سبيل إلى ذلك إلا (الذوق) ذوق الأخيار الذين فتح الله عليهم، من رجاله الصالحين .

هنا اقتنع البطل (عصام) كلسان حال للأمير عبدالقادر أن (عريف الجماعة) كان على حق، في قلقه، وقصور فهمه، واستحالة إدراكه بالسبل المعتادة المتاحة للجميع، الإدراك: فتح يهبه الله من يشاء، ليعرف ما يتوق إليه لا عبر عقل وحسّ، إنما عبر الذوق والقلب، فالعريف إذن كان صادقا، وينبغي الأخذ بحكمه على سبيل اليقين، فلا يجادل كما لم تجادل قط (حذام) ذات (النظر) البعيد :

إذا قالت حذام فصدقوها   فإن القول ما قالت حذام

فيقول (الراوي) الذي تحول إلى (بطل) ثم عاد إلى (راو) معلنا اسما مجازيا له: (وحين رجعت إلى الأصحاب، قالوا: ما وراءك ياعصام ؟! فقلت: القول ما قالت حذام، ولكن ياقوم، لا تعجلوا بالعتب واللّوم، أرأيتم لو جاءكم عنّين عديم حاسة الذوق، وقال عرّفوني لذة الجماع، بم كنتم تفهمونه علم ذلك ،تعلمونه !! فمنهم من سلم وأنصف، ومنهم من ألح وتعسف، وربك أعلم بمن هو أهدى سبيلا، وأقوم قيلا، وعندما ينجلي الغبار، يتبين راكب الفرس من الحمار [٩] .

بهذا تنتهي (المقامة الصوفية) للأمير عبدالقادر، معلنة رأيه في الموضوع، حيث الفتح الإلهي نعمة يهبها الله من يشاء من عباده الصالحين، بعد (المكابدة) والإخلاص، والحب، ويحجبها عمّن دون ذلك، فالحقيقة الصوفية هبة ربانية: تقوم على الذوق، فتغمر النفس، ويدق فيها الوجدان، ويسمو الشعور، وتتألف الأحاسيس الإنسانية الرفعية بظلالها النورانية الدافقة تترع النفس بشرا وتغمرها سعادة و تملأها طمأنينة وسلاما مقيما استقر، فلا يبرح. ولا يريم، متذوقا (الخمر) الإلهية، سعيدا منتشيا بكشفه الذوقي.

هذه (المقامة النثرية) يطورها (الأمير عبدالقادر) مباشرة بعد الانتهاء منها، في منظومة مطولة ، في أكثر من (٢٧٠ بيتا) بل هي (٢٧١ بيتا) موزع المشاعر فيها بين إدراكه وكشفه، وبين ظلال الذات الإلهية، ومن هذا الحشد من المشاعر فيها بين إدراكه وكشفه، وبين ظلال الذات الإلهية، والأشواق والرؤى والصور، نلتمس قليلاً من الأبيات بما يعطى فكرة تقريبية، عنها :

فلو رأيت الذي شاهدت علنا — لكنت تعذرنا إذن أعاذلنا
وكنت تعلم كيف الأمر متضح — وكيف قلنا الذي قلنا وقيل لنا
وكنت تبكي دما تقول وأسفا — وتبذل الروح منك كي تواصلنا
محزون قلب له شغل بغايته — ترى لنا الفضل حيث الله فضلنا

فشـؤم نكرك يامشؤوم حاق بكم ... مـا راعـنا أبـدا وقتـا وهولنـا
فنحن في غبطة صفا الزمان لنا ... مُنعَّمون بمـا الإلــه خوّلـــنا
جمالنا بعـلوم أنــت تجهلهــا ... بهـا حبانا الـذي أهدى وجملنـا
عرفنـا كل الـذي وصفتمونا بــه ... ونحـن أعـرف منكـم بأنفسنا
أمطنا الحجاب فانمحي غيهب السوى ... وزال وأنـت وهـو فلا لبس
ولـم يبـق عيرنا ـ وما كان غيرنا ... أنا الساقي والمسقي والخمر والكاس
أوقـات وصلكـم عيـد وأفراح ... يامـن هم الرُّوح لي والرَّوْحُ والرَّاح
يامن إذا اكتحلت عيني بطلعتهم ... وخفقت في محيا الحسـن ترتاح
دبَّـت فـي كلّ جوهرة حميّاهم ... عقـل ونفس وأعضـا وأرواح

....

أريد كتم الهوى حينا فيمنعني ... تهتكي، كيف لا والحب فضاح

....

ما جنة الخلد إلا فـي مجالسهـم ... فيهـا ثمـار وأطيار وأدواح
هوى المحب لدى المحب أين ثوى ... يرتاح مهما تهـب منه أرواح

❊ ❊ ❊ ❊

فيا نورا بلا شمس ... ويا شمسا بـلا نور
ويا بحـرا بلا حــد ... وساحـلا بـلا بحـر
ويا فجـرا بلا ليـل ... ويا ليـلا بـلا فجـر
لقد حيّرتني حتـى ... في حيرتي وفي أمري
وحار كل ذي كشف ... وذي عقـل وذي فكـر

❊ ❊ ❊ ❊

ثم ينهي (الأمير عبدالقادر) مطولته بفقرة نثرية عن الحب الإلهي، وخمرته الربانية، تستمد روح (المقامة) النثرية أو (شبه المقامة) كما أسماها، وظلال المطلولة ذاتها، معلنا (الراحة) و (السعادة) بالوصول إلى (الكشف) بينما يمضي الضالون في غيهم يعمهون، من باب الفتح محرومون، فيقول أخيرا إذن :

« لما انفتح الباب وارتفع الحجاب، واجتمعت الأحباب على الشراب اللذيذ المستطاب، رتب الأفراح حيث ما دبت الراح، وبعد أن طار السكر والمحو ونزل الحضور والضحو، رأيت شمسنا طالعة، مشرقة ساطعة، والناس في ظلمة وليل، وهرج وويل، فقلت مابال الناس ؟ فقيل: إنهم في عمى وإفلاس، ومالكم ولهم ؟! إنهم عاتم وأنتم عالم، والله غالب على أمره الحاكم العزيز العالم ». [١٠]

وإن بدا الشكل الفني لنوع (المقامة) هنا مقصودا تصريحا، ولغة وأسلوبا، فإن الارتباك واضح في (الرواية) و (البطل) حيث وزع الكاتب الأدوار بشكل اعتباطي غير ناضج بين «عريف الجماعة» كشخصية دينية صوفية تخلفها في الدور شخصية (عصام) التي تنسحب حسب السياق عن شخصية (الأمير عبدالقادر) التي بدت أكثر عزما وإصرارا، فهو (طلاع الثنايا) فيكابد الشوق والتوق متحديا المخاطر، غير عابئ بالذين فشلوا في الوصول، أو المعرضين عنه يأسا أوضلالاً، بينما يتسلح هو بالصبر والإخلاص، حتى أدرك غايته بفضل الجهد والمثابرة، والتجربة، والمشاهدة التي قوامها الذوق أولا وأخيراً .

قام هذا الذوق على (مشاهدة) وجدانية في تجربة روحية، نهجت نهج المغامرة الصوفية، في إدراك الذات الإلهية، ولم يتأت ذلك إلا بالمكابدة، والمجاهدة التي لا يتوفر على الاستعداد لها الجميع، لكن البطل هيأته معارفه الدينية، لخوض التجربة، كما هيأته

نفسيته، وتوقه الروحي، بحثا عن ملاذ في ظلال نورانية تشيع في النفس دفئا، وتغمرها سلاما، بعيدا عمّا يتصارع فيه الناس، القاصرون دون إدراك (السر) الذي كان دائما يتوق إليه المتصوفون: شعراء وناثرين وسواهم .

من هنا تبدو (المصطلحات) الصوفية، وظلال الصوفيين، وتوقهم وشوقهم أمرا طبيعيا في هذه (المقامة) بمضمونها الديني، وإطارها الأدبي، الذي هو (المقامة) الذي لم يعد (كدية) واحتيالا، بل توظيفا للإطار: كي يملأ بمضامين مختلفة، تختلف فيها الموضوعات، والغايات، كما يختلف بعض الشئ الأسلوب نفسه .

ورغم أن هذه التجربة للأمير عبدالقادر معبرة تعبيرا قويا عن صاحبها، ثقافة وميولاً، فهي أيضا معبرة عن عصرها في النزوع إلى (الانطواء) تحت عوامل مختلفة، بما فيها الظروف النفسية للشخصية غير المفصولة عن ظروفها السياسية والاجتماعية في جو عام، من القرن التاسع عشر الذي لم يشهد أي تطور لنوع المقامة، وليس هناك ما يشجع عليه ولا على غيره أيضا من فنون القول الأخرى، ومن ذلك وسيلة النشر، والقارئ نفسه.

إن فقر القرن التاسع عشر كغيره في هذا النوع الأدبي يرجع إلى غياب وسائل التبليغ أساساً: نشرا، وتوزيعا، فضلا عن الظروف الصعبة التي عرفتها (الجزائر) يومئذ خصوصا والوطن العربي عموما، سياسيا، واقتصاديا، وثقافيا، واجتماعيا، مما زهد في كل شيئ، بما في ذلك الكتابة الأدبية الفنية، خصوصا من ذلك النوع الذي يتطلب بعضا من طول النفس، وسعة البال، وخلو الذهن من المنغصات الخاصة، والعامة: مما يحول دون الكتابة الفنية الناضجة، وإن أفسح المجال للكلمة الشعرية المرتبطة بلحظة انفعال، وصياغة موقف، لم يكن لدى شعرائنا التقليديين يتطلب (معاناة) و (مكابدة) كبيرتين، لطابع المباشرة، والعفوية في القصيدة التقليدية يومئذ .

مع ذلك نلتقي في نهاية القرن التاسع عشر مع نموذج فني متميز، لشاعر كاتب مؤلف من ممثلي هذه المرحلة، هو الشيخ (محمد بن عبدالرحمن الديسي) المولود في (١٨٥٤م) المتوفى سنة (١٩٢١م).

أما عمله هذا الذي وصفنا بالتميز، فهو (المقامة - المناظرة) التي ألّفها بعنوان «المناظرة بين العلم والجهل» سنة (١٣١٤هـ / ١٨٩٥م) لكن نشرها تأخر عن ذلك، إلى سنتي: (١٩٠٨م) و (١٩٠٩م) حيث نشرت جريدة (كوكب افريقيا) بالجزائر نحو ثلثيها، في ثلاثة أعداد، العدد: (٧٧) الصادر في ٢٧ رمضان ١٣٢٦هـ (٢٣، ١٠، ١٩٠٨م) والعدد (٨٠) الصادر يوم ١٨ شوال ١٣٢٦هـ (١٣، ١١، ١٩٠٨م) ثم العدد (٨٩) في ١٥ ذي الحجة ١٣٢٦هـ (٨٠ جانفي، ١٩٠٨م).

ثم نشرتها مطبعة (بيكار) وشركائه، في (تونس) ككتاب، لكن من دون تاريخ. غير أن المؤكد أن هذه (المقامة - المناظرة) قد كتبت مع نهاية القرن التاسع عشر بالنص الصريح في آخرها، حيث يقول الكاتب «والغرض من تلفيق هذه الكلم، ونظمها في سمط الحكم، والله أعلم بالنيات: إيقاظ العزايم وتحريك الهمم تمام سنة أربع عشرة وثلاثمئة وألف رابع الحجة).[١١]

كتبها بعنوان (المناظرة) ثم بدا له أن يصنفها في نوع (المقامة) بفعل طابعها القصصي، وأبطالها، ومجال الحدث، حيث جرت أحداث المناظرة الحوارية في مجلس استدعى في النهاية حكماً، يتدخل لحل الخلاف الذي نشب منه الجدل بين لسان (حال العلم) ولسان (حال الجهل) كما بدا له أنه لقي تشجيعاً عليها واستحسانا لها، وإيثارا أيضا لاسم (مقامة) جديرة بالشرح، فتصدى لها هو نفسه بشرح يقع في (مئة وثلاثين صفحة) لا يزال مخطوطاً لدى أحد أحفاده، وأطلق على هذا الشرح اسم «بذل الكرامة لقراءة المقامة».

فهي إذن (مناظرة) امتطت شكل المقامة: شخصياتها، وجوها، ولغتها المنتقاه، وسجعها، وموسيقاها، فما موضوعها ؟ بل ما الغاية منها ؟ لقد كشف الكاتب عن هدفه منها، وهو تحريك الهمم، للحوار، والنقاش والإبداع في إطار أدبي، فاتخذ لذلك موضوعاً قائما في كل زمان ومكان، تقريبا، وهو حيازة الجهلة والأميين: المال والجاه، والمتاع في الحياة الدنيا، التي لا يظفر فيها المثقفون إلا بالعناء والنصب، وشظف العيش، مع البقاء على هامش الحياة في مواقع التأثير الفاعل: سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، فتاق الكاتب إلى الوصول إلى مبرر، فاختلق لذلك أشخاصاً، هم: الراوي، أي قلم (المؤلف) ولسان (حال العلم) ولسان (حال الجهل) ثم لسان (حال الإنصاف) فيجري الجدل وسط قوم في مكان حدد مسبقا في يوم معلوم .

يفتح الكاتب مقامته (المناظرة) هكذا «بعد حمد ملهم الصواب ، وكاشف الأصواب، والصلاة الكاملة والتحيات المتواصلة الشاملة على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه والفئة العالمة العاملة.»[١٢]

فالافتتاح ديني تقليدي تضم (براعة استهلال) في جزء جوهري، من لب النتيجة من الحوار بين حالي (العلم) و (الجهل) وقد شهده حضور في يوم معلوم .

كان (العلم) هو البادئ بالكلام معتداً بنفسه ساخراً من (الجهل) رغم أن الكاتب يقدمه في حالة مزرية توعز بضعفه وهزاله وتهميشه، انعكاساً لما انتهت إليه أوضاع المثقف والثقافة في (الجزائر) بعد الاحتلال الفرنسي، فيصوره وهو ينهض للمرافعة هكذا «فقام العلم وقد شاخ وأسنّ، وأدركه الضعف والوهن، بادي الإعواز، يتوكأ على عكاز، في رثة حال، وأطمار وأسمال، فبسمل وحمدل، وحسبل وحوقل، وصلى وسلم، على خير من عَلِم فعلّم، وقال: ياجهل ما أنت لخطابي بأهل، ولا جدالي عليك بسهل، يا موت الأحيا وياقليل الحيا، ويا سبب تفليس ابليس، ويا حلية كل دنئ وخسيس، كيف تكون لي أنت المجاري، والعلم صفة الباري».[١٣]

فقد بدأ العلم بمثالب (الجهل) معلنا الفرق بين من (يفهمون) ومن (لايفهمون) باعتبار (العالم والمتعلم والعلم في الجنة) فيذكر لهذا صفات .

(العلم) ومزاياه وفضائله قائلاً «إلى ترجع الأربعة أركان التي بها شرف الإنسان، علوم الأديان، وعلوم الأبدان، وعلوم الأذهان، وعلوم اللسان» .

فيكفي العلم شرفا في نظر (لسان حاله): «أن كل أحد يدعيه، وكل ذي فطرة سليمة يقصده وينتحيه» أما أبناؤه (العلماء) فهم «هداة العباد ومصابيح البلاد، زينة المحافل، ورؤساء الجحافل، أيامهم بالمحاسن معمورة، ومساعيهم في الصالحات مشكورة» وهم أخيراً ذوو اختصاص لا معون في كل فن، وفرع من فروع المعرفة .

لكن لسان (حال العلم) يلوح باللائمة على الزمن الظالم الذي امتطاه الجهلة والمنافقون، قائلاً «فلتبك على سلفي الصالح المنابر، والأقلام والمحابر ... فلا يسعني إلا الرضى والصبر على مر القضا، والتقلب على جمر القضى» وهو في ذلك، لم يهمل الصفات السلبية يلصقها بالجهل وأصحابه «يكفي الجهل قبح وسمه، ولكل مسمى حظ من اسمه، يخبط خبط عشواء ويركب متن عميا» ثم يأتي دور لسان (حال الجهل) فيقدمه الكاتب في صورة مستمدة من طبع (الجاهل) وسماته قبحا وزهوا وخيلاء على النحو التالي، حين نهض: «أبرق وأرعد، ووعد وأوعد، ونهض في أكمل شارة وأحسن بزة، وقد انتفخ من الكبر وأخذته العزة» ليخاطب (العلم) قائلاً «يا علم، ما هذا الإفراط في الظلم .... أما تخشى قوتي ... وبيدي المناصب، وأنا الرافع والناصب، والمتصرف في الحكام، وإلى مرجع الأحكام، والنقض والإبرام، والقهر والإلزام .... قد ملكت الأمصار، وملأت الأقطار، وخفقت في الخافقين بنودي، وطبقت المشارق والمغارب جنودي ».[١٤]

ثم يضيف (الجهل) عن أبنائه (الجهلة) فهم في الدنيا «المترفون المنعمون، والقوم الذين هم في العيون معظمون، ويتمتعون بفاخر الأكل واللباس، وسواء عندهم مابأس به، وما به باس، فكم أجروا في الهوى أفراسا، وزينوا ولائم وأعراساً، وأعمروا القهاوي

والحانات، وملأوا الاصطبلات والخانات، ولهم المعازف والعيدان، والمغنون والقيان، ولهم الليل وصهوات الخيل ..... بأيديهم المتاجر والأسواق، وإليهم الأرزاق عفوا تساق ».

يقول لسان (حال الجهل) هذا بعد أن يعدد بدوره مثالث (العلم) الذي بنوه هم «الشعث الغبر، الذين ليس لهم عند أهل الدنيا اعتبار ولا قدر، إن خطبوا ردّوا، وإن عد الناس فما عدوا، وإن غابوا فما فقدوا، وإن حضروا فكأنهم ما وجدوا، مالهم شارة، ولا إليهم إشارة» .

وينتهي لسان (حال الجهل) مخاطبا لسان (حال العلم): « هبك صرت العلامة الثاني ما بلغت الأماني، والدهر عبدي وغلامي، وقد آن أن ترجع من حيث أتيت وتموت كما كنت من قبل حييت، وأنا نزلت إلى الأرض في هذه الساعة، وعلى أبنائي تقوم الساعة» .

ثم يتدخل (الحكم) في شخص (الإنصاف) كمصدر أسند إليه الكاتب مهمة الفصل بين الخصمين فقال: «آيها الخصمان دعا الشقاق واتركا اللجاج ولا تطيلا الحجاج، وأنتما المتعاقبان على نوع الانسان .... قد اقتضت الإرادة الأزلية أن يكون العالم على هذا النظام: جهلاء وعلماء، فلو كان الناس كلهم علماء فمن ذا يقوم بالمهن، أو جهلاء كلهم فمن ذا الذي يحفظ الشرائع والسنن، وليست بينكما مصاددة، ولا كبير معاندة، وأنا أقضي بينكما بقضاء فصل وكلام جزل، فخيركما العالم العامل، ثم يليه المسترشد الجاهل، ولا خير في غير ذين من كلا الصنفين» (١٥).

ويعلن (الراوي) بهذا الموقف، انتهاء المواجهة بين (الخصمين) قائلاً «فانقضى الكلام وافترقوا بسلام، وختمت المقامة بحمد أهل الجنة في دار المقامة» .

ففي هذه (المقامة) ميدان (الحدث): مجلس (معلوم) حضره قوم في يوم أيضا معلوم، ليشهدوا مواجهة بين (لسان حال العلم) و (لسان حال الجهل) كشخصيتين خياليتين، انضمت إليهما شخصية خيالية ثالثة هي شخصية (الإنصاف) تضاف إلى ذلك شخصية (الراوي) غير المسمى، ويفهم من السياق أنه المؤلف الذي كيّف مجريات (الجدل)

ليخدم غرضه، فيرفع شأن العلم في تقدم الأمم والشعوب، ودور العلماء الحضاري، لكن يبقى العلم ورجاله يعانون عنت الحياة وتسلط الآميين والجهلة الذين اغصبوا السلطة والجاه والمال، فاحتكروا بذلك متع الحياة ورفاهيتها، وحرموا منها رجال العلم، ولم يسخروها في ازدهار الشعوب والأوطان، لذا قدم الكاتب (لسان حال الجهل) في صورة عربيد تشغله أهواؤه وملذاته، فيبدو جلفا، مغرورا مستهترا، تشغله نزواته عن كل ما حوله.

ويحاول لسان (حال الإنصاف) أن يخفف من حدة الصدام بين الخصمين، فيلوذ بالمنطق التوفيقي، الذي يرى أن الحياة تنهض بالطرفين، لوضع حد، لما لا يوضع هنا له حد، إلا بانتصار قيم الخير والفضيلة .

ولقد وردت مقامة (الديسي): (المناظرة) على ثلاث مراحل، سبقها تمهيد قصير عن الجدل الذي حصل بين (العلم) و (الجهل) في يوم معلوم، بمكان ما، فكانت المرحلة الأولى التي ابتدأ فيها (العلم) بالكلام «معيرا الجهل وأتباعه من أحبة وبنين» (١٦)، واصفا إياهم بالبهائم «وإن لبسوا العمائم» ويأتي دور (الجهل) في المرحلة الثالثة منتفخ الأوداج، معلنا سيطرته على شؤون الحياة، وسطوته بين الناس، ثم يأتي دور حال (الإنصاف) ليحكم بين المتخاصمين، داعيا لهما لترك «الشنان و ...... اللجاج» .

وقد بدا الدافع في (المقامة - المناظرة) فكريا، لبعث نشاط فكري، وحركة نقدية وأدبية، فأعلن الكاتب ذلك صراحة بأنه قصد بها «إيقاظ العزائم وتحريك الهمم» لذا اكتست هذا الطابع الأدبي المشرق، تحت عنوان (مناظرة) والتصريح في النص أيضا باسم (مقامة) وكرر اسم (مقامة) بإلحاح، في مخطوط له شرح به هذه (المناظرة) في نحو مئة وثلاثين صفحة أسماه «بذل الكرامة لقراء المقامة» .

و (المقامة - المناظرة) توفرت عل أهم العناصر التقنية في (المقامة الأدبية) من إعداد (المقام) أو (المجلس) وأسلوب الرواية، والحكاية التي جاءت في مجرى جدال أشاع حيوية في الموضوع، ثم العناصر البشرية، فهناك (الراوي) النكرة الذي اختفى (المؤلف)

وراءه، ثم هناك (الأبطال) الثلاثة (لسان حال العلم) و (لسان حال الجهل) و (لسان حال الانصاف) فضلا عن الطابع اللغوي، خصوصا في ذلك السجع، الذي اتسم عموماً بالخفة والرونق، وقصر الجملة، ووضوحها في الأغلب الأعم مثل: «متكلمون وفقهاء، أصوليون وأدباء، ومناطقة وحكماء» .

عبرت تجربة (الديسي) هذه عن إحساسه بما آل إليه الوضع الثقافي بالجزائر تحت الاحتلال الفرنسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فعكس ذلك تصويره (العلم) بأنه «شاخ» و «أدركه الوهن» للتعبير عما أصاب الحركة الثقافية عموما والأدبية، خصوصا أن المرحلة التي كتب فيها تجربته كانت تؤذن بالخروج من (غيبوية) إلى انتعاش واعد، فهو كتب المقامة سنة (١٣١٤/١٨٩٥) ونشرها في (١٩٠٩- ١٩٠٨م).

وفيها إدانة لصوت (الغوغاء) الطاغي في مختلف الجوانب من الحياة، مما يسهم في إزاحة القيم الخالدة، قيم البناء الحضاري الإنساني، الذي يحتل فيه العقل والعلم، والعلماء بالضرورة مكان الريادة، والإجلال والاحترام، فالمقامة فكرية أدبية: ذات خلفية سياسية، ثقافية، اقتصادية، اجتماعية، يتمثل الجانب (السياسي) في إدانة الاحتلال الأوروبي وقوى الشر التي كانت دائما تقدم النماذج البشرية الجاهلة السلبية في مواقع القرار السياسي، فهي عناصر يعوزها الوعي الحضاري، فتفتقر للرؤية المستقبلية، ويعكس الجانب الثقافي ما آل إليه الوضع بعد نهاية المقاومة بقيادة (الأمير عبدالقادر) من ركود أولا، وما أذنت به مبادرات من تطلع للخروج من (غيبوية) إلى (انتعاش) يفضي بالضرورة عند العمل وتوفر الإرادات إلى النهوض الفاعل .

وكاد الجانبان (الاقتصادي والاجتماعي) يتجسدان في وضعية (رجل علم) من جهة: عنتا وتهميشا وضنكا، والسوقة الذين مالكوا زمام الأمور في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مثل الحياة السياسية .

غير أن التجربة كثيراً ما ارتبكت لدى الكاتب، في أقوال يسندها إلى (العلم)

وأخرى يسندها إلى (الجهل) فيصور (الجهل) في موقف ليس من طبيعته كما يفعل مع العلم، كما ينطق ذلك بما يناقض موقعه ومستواه، خصوصا حين يجعله فجأة (ذا معرفة بالتاريخ، والعلوم التي لم تجد (العلم) و (العلماء) نفعا في حياتهم، فبعض مثالب (الجهل) «بدل أن يرفضها الجهل نفسه أكّدها بدوره بطريقة مباشرة، أنطقه بما ليس من طبيعته النطق به، كأن المؤلف يوعز إليه أن يفخربما يراه الناس رذيلة، ليجعل منه هو فضيلة، إمعانا في تحقيره أمام الناس، مثل ارتياد الجهلاء (القهاوي) و (الحانات) (فملأوا الاصطبلات والخانات) ولا يغيب عن أذهاننا ما في معنى ارتيادهم (الحانات) وإقامتهم بالاصطبلات من إهانة، وتحقير، وهو كلام معقول جدا لو ورد على لسان حال العلم، لكن المؤلف أورده على لسان الجهل الذي يستحيل أن يعرّض بنفسه، إلا بإيعاز من الكاتب لتنفير الآخرين منه أكثر، وهو أسلوب أشد التصاقا بالوعظ والإرشاد للبسطاء تحبيبا للعلم، وتحقيراً للجهل، بل إن هذا دليل على وضع العلم والعلماء في وقته، وهو رأي جيد دقيق ومعبر عن الواقع» بمختلف وجوهه كما عاشه الكاتب في عصره .

« ويشبه هذا الموقف للجهل موقفا آخر وقفه من الأسلاف الذين سبق أن اعتز بهم العلم، وبما تركوه من مجد، فأجابه الجهل: «ماذا ينفعك ذكرك السالفين من الأعلام، تلك أمة قد خلت، ورسوم درست، وعفت، فهل بذكركم ما مضى، يعاد من رونق الأموى، وبهجة الأزهري، ومسجد قرطبة، وفخامة الزيتونة، وضخامة القرويين، وشهرة المدارس الثماني، ونظامية بغداد) فهذا اعتراف صريح من الجهل بأفضلية العلم وما له من مكانة» (١٧) ماضياً، اعتراف يتناقض مع شخصية الجهل العامة كما رسمها الكاتب له: عربيدا جلفا، وهو ضرب من ضعف التجربة، والتعبير عنها، انسحب أيضا عن شخصية (العلم) التي كان (الراوي) يسندها، لكنه يسهو فيقول «فلما فرغ العلم من القيل» مما يتضمن ضعف الحجة، فتأتي هذا السهو - ربما - في سياق البحث عن السجع، فكان التعبير «وسمع الجهل ما في حقه قيل» .

ومهما يكن من شيء، فإن هذا النص (المقامة - المناظرة) نموذج أدبي متميز، ومتقدم جدا في الفترة التي كتب فيها، ثم نشر، نموذج نثري رائد مع نهاية القرن التاسع عشر كتابة، وبداية القرن العشرين نشراً .

وهو فضلا عما سبق استجاب لحاجة فكرية أدبية في مناخ أدبي شرع يتطلع للخروج من الركود، ربما من هذا المنطلق كان الاهتمام كبيرا بهذا النموذج مخطوطا أولا، ومطبوعا ثانيا، وربما هو الاهتمام الذي حفّز الكاتب على تحرير شرح له، لايزال مخطوطاً، اسمه «بذلك الكرامة لقراء المقامة» يقع في مئة وثلاثين صفحة من الحجم الكبير، بدا فيه اطمئنانه إلى مناظرته - المقامة، باعتبارها «نموذجا من الأدب الرفيع، كما يرى توفيقه فيها هبة من اللّه» [18] الذي ألهمه الفكرة، والأسلوب الرشيق الذي عولجت به .

يقول الديسي، في مقدمة: (بذل الكرامة لقراء المقامة): «إن الأدب للعقول السليمة رياضة و أي رياضة، يعرف ذلك من انتشق أزهاره، أو دخل حياضه، وقد أجرى اللّه على جناني، وأنطق لساني بمقامة أدبية في المفاخرة بين العلم والجهل، استحسنها من رآها من الإخوان، وأثنى عليها واستعذبها بعض أهل العرفان» [19] .

وبدا أن هناك أمرا لفت انتباه (الديسي) في تعليق الناس على مقامته، من أن هذا الضرب من (الجدل) يفتح الباب للضغائن، ويجر إلى ضرب من «تنابز بالألقاب» المكروه شرعا، فكتب تحت عنوان «تنبيه» مايلي: «قال بعض العلماء: إياك أن تشتغل بهذا الجدل الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء، فإنه يبعد عن الفقه، ويضيع العمر، ويورث الوحشة والعداوة، وهو من أشراط الساعة، كذا ورد في الحديث، وقال بعضهم: إياك والمراء فإنّه لا تعقل حكمته، ولا تؤمن فتنته» ليضيف بعد هذا مباشرة دفعاً للبس، «الإنصاف أن الجدل لإظهار الصواب على مقتضى قوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة

النحل آية ١٢٥) لا بأس به، وربما ينتفع به في تشحيذ الأذهان، والممنوع هو الجدل الذي يضيع الوقت، ولا يحصل منه طائل» فكري أو معرفي أو سواه .

ثم يشرع في شرح (مقامته - المناظرة) بمستويات مختلفة، حسب طبيعة الجملة أو الفقرة وأهميتها: لغة، وبلاغة، ومعنى، ففي شرحه للتعبير عن (العلم) الذي «شاخ وأسن» يقول: «إن تمثيل المعقول بالمحسوس، وإبرازه في صورة المشاهد، وتصويره المألوف أوقع في النفوس، ولذا كثرت الأمثال في كرم العرب، وعلى أساليب كلامهم نزل الكتاب العزيز مستكثراً من ضرب الأمثال، وكذا كثر في كلام الأنبياء والحكماء» فهذا الشرح يضفي أبعادا جديدة إذن في رؤية الكاتب، فيغدو مفيداً جداً في الأضواء المختلفة التي يلقيها على (المقامة - المناظرة) فتفتح أكثر من أفق آخر للناقد الباحث .

وللديسي مقامة أخرى أكثر صنعة، وهي لا تزال مخطوطة، بعنوان «تفضيل البادية بالأدلة الواضحة البادية» في أربع صفحات فقط، قام بشرحها كذلك، وفيها تعمد المفردات اللغوية، والاشارات التاريخية، والأدبية، افتتحها بالحمدلة والصلعمة، قبل براعة الاستهلال، معلنا أنه سيطرق في مقامته أمرا غريبا سها عنه (الهمذاتي) و (الحريري) فلم ينطقا بطليهما به، فاستدركه (الديسي) وأجد في نفسي هنا ميلا للاختصار، فأكتفي بنقل ما كتبته عن هذه المقامة في كتابي عن (الديسي حياته وآثاره) فبعد التمهيد يصل الكاتب إلى قوله «ومن العجائب التي لم يحكها عيسى بن هشام، والغرائب التي ما عثر عليها في تطوافه الحارث بن همام: أن عقايل من بنات أقايل القبائل، اجتمعن في فصل الربيع، وقد ذبح الأرض غيث مريع ..

ثم أخذ يذكر اجتماعهن تحت الأغصان، وبين الكثبان (فطر بن ولا طرب العذاري بدارة جلجل) ثم يصل إلى صلب الموضوع (فقالت واحدة منهن: ألم تسمعن يا أخوات

ويابنات السراة ما ينقل لنا عن أديب قروي يقول بتفضيل ساكنات المدر على ساكنات الوبر؟ فقلن كلهن من أين له هذا التفضيل الذي ليس له عليه دليل) .

وأخذن يفتخرن بخصال البدوي الذي يأبى الضيم، ويكرم الضيف، ويرعى حق الجار، ثم يورد الكاتب على لسانهن ذكر محاسن البادية، في رأيه - (ما جسنا طبيب، ولا لمستنا يد مريب، ولا عرفنا المارستان، ولا احتجنا المعالجة بالإسهال، قد سلمنا من مزمنات العلل، ولم يمرض غالبنا إلا مرض الأجل، وعوفينا من سيئ الأسقام والجنون والبرص، والجذام، ولم ندخل الحمامات، حيث تقع الخيانات، ومعلوم أن ما انتفى عنا من الوصم التصق بغيرنا على رغم الخصم) .

من أهمية هذه الرسالة (المقامة) أنها توضح لنا تحولا حدث في فكر الشاعر - الكاتب، يتمثل في عدوله عن رأي سابق، في تفضيل المدينة، ورغم أننا لم نستطيع تحديد تاريخ هذه الرسالة، فإننا اهتدينا إلى أنها تحمل رأيه الأخير والنهائي في المفاضلة بين المدينة والبادية »[٢١] حين اهتدى أن تفضيله (المدينة) سابقا، يعتبر من التعدي وعليه فهو قد صار من عشاق (الوبر) لا (الحجر) .

ورغم صغر هذه المقامة، والإغراق بها في الغريب اللغوي، والإشارات الأدبية والتاريخية، فهي من أحسن النماذج أيضا في مطلع القرن العشرين .

وفيها يتكرر الراوي النكرة يغطي على الفاعل الذي هو المؤلف، ثم يرمي بمسار الحوار بين مجموعة فتيات ريفيات ضمهن مجلس في البادية، فأعلن احتجاجهن على الكاتب الذي اعتبر رأيه السابق من «التعدي» والتجاوز الذي لم تغفره حسناوات الريف الجزائري الذي استدرج ريفا عاش فيه (امرؤ القيس) وخاض مغامراته التي تاق الديسي لمحاكاتها فنيا، وهو المولع بالطرافة في الفكر والفن أساسا .. في نثره مثل شعره .

لقد عرف القرن التاسع عشر تقلبات سياسية مختلفة في الوطن العربي خصوصا ، والإسلامي عموما ، فانجرت عن ذلك أوضاع فكرية وثقافية وأدبية، اختلفت حيوية في مطلعه، وتردّدا بعد منتصفه في (الجزائر) ثم انتعاشا آخره، حين شرع المناخ الثقافي يتنفس بعض الشيء، فبدأت تبرز أعمال في التراث، جمعا وتحقيقا ودراسة، لازمتها بعض الحركة الأدبية، يعنينا منها هنا النثر الفني، وقد رأينا أن القرن التاسع عشر حفل بأعلام، منها أعلام أدب كتبوا في النثر كما كتبوا في الشعر، من أهمهم (الأمير عبدالقادر) و(الديسي) فرأينا للأول مقامته الصوفية، وللثاني مقاميته (المناظرة بين العلم والجهل) و (تفضيل البادية بالأدلة الواضحة البادية) فاختلفت شخصية (البطل) من شخصية مادية بشرية في (تفضيل البادية ....) عن شخصية معنوية ذات ظلال حضارية في (المناظرة) وكان الخيال سيد الموقف في الحالتين، حيث سلك الكاتب أسلوب الحوار، وهو حوار اتسم بالطول في (المناظرة) وبقصر المقاطع، في تفضيل البادية لكن بقى الكاتب في ذلك ملتصقا بالصور المادية العامة للأبطال والأوضاع، فالعلم (شاخ وأدركه الوهن، يتوكأ على عكاز) و الجهل: زمجر «وأبرق، وأرعد» و (مقاهيه) و (حاناته) ضجت بالصخب، لكن بقيت نوادي العلماء هنا يكسوها الهدوء والوقار .

كما تبقى الألوان الصارخة واضحة، خصوصا في (فصل الربيع وقد ذبح الأرض غيث مربع) ومثلها الموسيقى القوية السريعة في السجع بألفاظها المزمجرة عموما في (المناظرة) والهادئة العذبة في (تفضيل البادية) .

في كل الحالات اجتهد (الديسي) في ابتكار ما يمكن أن يسهم في ضرب البرك الراكدة في الحياة الثقافية والفكرية، للخروج من غيبوبة أو سبات عميق إلى ما يحرك سواكن النفوس، ويسهم في إشاعة حيوية أدبية بدأت ملامحها مع أواخر القرن التاسع عشر، فكان ذلك خطوة أولى للاحقها في القرن العشرن .

(٢)

أما في القرن العشرين، فإن شهدت الحركة الفكرية والأدبية تطورا كبيرا فإن فن (المقامة) لم يساير هذا التطور كثيرا، لا مادة، ولا أسلوبا، لكنه شهد بعض التطور المهم، في حجم المادة، وفي النشر، وفي الرؤية الفكرية، فالوضع شرع يختلف تماما منذ مطلع القرن: سياسيا واجتماعيا وثقافيا، أساسا، فقد عرف القرن سيلا من الصحف العربية، كانت أولاها جريدة (كوكب افريقيا) لمدير تحريرها (السيد محمد كحول) وإن كان تمويلها استعماريا من الولاية العامة، فقد اتخذت العربية لسانا، واستقطبت أقلاما جزائرية ذات أهمية، خلال استمرارها، بين (١٩٠٧) و (١٩١٤) فأسهمت في إشاعة الحيوية الأدبية، بطرقها لعدة موضوعات، من بينها فن (المقامة) و (المناظرة) فكتب فيها بعض أعلام المرحلة، من بينهم (محمد بن عبدالرحمن الديسي) كما راسلها (عبد الحميد بن باديس) نفسه حين كان طالبا في (تونس) قبل أن يتحدد خطه الإصلاحي طبعاً .

أما أول جريدة وطنية بخطها الفكري ولغتها وتموينها، فكانت جريدة (الفاروق) التي أسسها المفكر الجزائري، الإصلاحي، الصحفي (عمر بن قدور الجزائري) فصدر العدد الأول منها يوم ١٨ فيفري ١٩١٣ م، لتكون كما يقول صاحبها «فارقة بين الحق والباطل، وآمرة بالمعروف ناهية عن المنكر» واستمرت حتى ١٩١٥ ، ورد تحت عنوانها ما يلي: «جريدة إسلامية علمية اجتماعية أدبية» كما ورد على جانبها الأيسر أنها: «إصلاحية إخبارية، تصدر كل يوم اثنين» فهي أول جريدة أسبوعية «وطنية ترتقي إلى مصاف الجرائد العربية المعتبرة، وكانت إسلامية وطنية محضة، طالما اهتمت بقضايا المسلمين، وحللت واقعهم المرير، والتفتت بصفة خاصة إلى أحداث تركيا الدامية ناصحة ومحللة»[٢٢] فوقف (ابن قدور) إلى جانب(تركيا) ضد أعدائها، فلم يبال بمضايقات الاحتلال الفرنسي لذلك، وتحذيره له، مما جعل السطات الفرنسية توقف الجريدة، سنة ١٩١٥ ، وتنفيه إلى (الأغواط) حتى (١٩١٩) .

إلى جانب (عمر بن قدور) انطلق آخرون ، مثل (عمر راسم) الذي كانت له جريدة وطنية بدورها: حرفا وفكرا، عنوانها (ذو الفقار) صدرت بعد (الفاروق) بشهور، فكان العدد الأول يوم (٥ أكتوبر ١٩١٣)وعلى الصفحة الأولى صورة للسيف بين يدي (رسم) لاعتبار أن (ذار الفقار) اسم لسيف (الإمام على) كرم الله وجهه، لذا سجل (عمر راسم) الذي اتخذ له اسما مستعاراً: هو (ابن المنصور الصنهاجي) وتحت الرسم: النص التالي في الصفحة : « ذو الفقار: بعثت لاقتل النفاق، والحسد، والكبر، والشرك، من قلوبهم .... وأبث فيهم الصدق والتسامح والتواضع والإيمان الخالص وحب الخير لبعضهم، والتعاون و (الاتحاد) .

إلى جانب الصحف الوطنية العربية، هناك الصحف (العربية) التي أصدرها فرنسيون، في مقدمتها جريدة (المغرب) خلال سنتي (١٩٠٣-١٩٠٤) التي أصدرها (Pierre Fontana) بالعاصمة، مرتين في الأسبوع (الثلاثاء) و (الجمعة) كما أنشأ (Fontana) المطبعة التي بقيت تحمل اسمه (بيير فونطانا) فعملت هذه المطبعة على إصدار الكثير من الكتب العربية، خصوصا منها المحققة، كما هدفت الجريدة إلى التأثير على الجزائريين، كي يهادنوا المحتلين الفرنسيين، فورد لذلك في افتتاحية عددها الأول مايلي: «لايكفي مريد مداخلة الأمة الإسلامية والفوز بحسن التفاتتها أن يتكلم بلغتها فقط، بل يجب عليه زيادة على إتقان لغتها مشاركة أفرادها في الوجدان، وفي كثير من العقليات والمعتقدات، فالغاية المقصودة (للمغرب) هي السعي في التأليف بين الأهالي من سكان هذا الوطن وبين الأمة الفرانسوية، وذلك بإزالة كل خلاف، وبين ضرورة المعاملة بالجميل بين الأمتين» (٢٢) .

فاجتذبت هذه الجريدة بضعة كتاب جزائريين من ذوي الارتباط بالإدارة الفرنسية للمساهمة فيها بأقلامهم، وأفكارهم، التي ينبغي ألا تكون مناوئة للحكم الفرنسي في

(الجزائر) حيث اشترطت (الجريدة) بصريح العبارة أنها «لا تنشر فيها المقالات التي ترمي إلى سياسة مقاومة أو مضادة لفرنسا، لأن ذلك يحول بينها وبين مرغوبنا المتقدم ذكره من إرادة خدمة الوطن ونفع الأمتين» وهذا مما يجعل موضوعاتها خافته اللهجة، في مناقشة التجاوزات، والمظالم التي يرتكبها المحتلون، تكاد تقتصر على الجانب الديني، والاجتماعي والأدبي الذي يصرف (الجزائريين) عن الاهتمام بالقضايا الحيوية، في الميدان السياسي الفكري، أكثر انشغالاً بالقضايا العامة التي لا تقدح في سياسة الاحتلال الفرنسي في (الجزائر) خصوصا، وسواها، مثل (تونس) التي غدت محتلة فرنسيا، منذ (١٨٨١) في انتظار الانقضاض على (المغرب الأقصى) سنة ١٩١٢ .

فهي جريدة في جوهرها حكومية، تزامن صدورها مع سياسة (شارل جونار) الحاكم العام في (الجزائر) الذي عين أول مرة سنة (١٩٠٣-١٩١١) الذي حرص على التودد للجزائريين، فأوعز للسيد (فونطانا FONTAN) بإنشاء هذه (الجريدة) لكسب ودّ الجزائريين، وإتاحة الفرصة للأقلام الجزائرية لتكتب ما لا يتعارض والمصلحة الفرنسية، مع إباحة (النقد) وحتى (الانتقاد) في الأمور العامة التي لا تنال من السياسة الفرنسية في (الجزائر) وغيرها. في هذه الجريدة إذن شرع يكتب بعض من ذوي الارتباط بالإدارة الفرنسية خصوصا: أساتذة عربية وعلماء دين، ومن بينهم (عمر بن ابريهمات) الذي كانت له تجربة أدبية نشرت في حلقتين بهذه الجريدة في العددين الصادرين يومي (١٥, ٠٥, ١٩٠٣)و (٢٢, ٠٥, ١٩٠٣) بعنوان (مقامة أدبية) لسرد أخبار عن (أسفاره) في الشرق والغرب، بما في ذلك بلدان عربية اهمها (تونس) وأوروبية، أهمها (فرنسا) ففي (تونس) طرب طربا شديداً لالتقائه أحد فضلائها، أما في (باريس) فقد استاء فيها من سلوك انسان عربي جلف أحمق يطعن في انجازات الحضارة الإسلامية التي كان يشيد بها كثيرون في مؤتمر استشراقي عقد هناك في (باريس) سنة (١٨٩٧) فالمقامة ذات طابع أدبي إخباري موزعة الملامح والهوية بين (الرحلة) و (المقامة) فهي

تسجل أحداث رحلات، فتروي ما جرى في مجالس، ففيها من أسلوب الرحلة وشكلها نصيب، ومن إطار المقامة وأسلوبها نصيب، وقد بدا لي هذا الجانب أوضح خصوصا في بعض الجزئيات، مع العلم أن ملامح الإخبار والترحال في فن المقامة عنصر أساسي .

والمقامة ذات موضوعين، أحدهما عما زاره ابن ابريهمات من البلدان ومن لقيم فيها من أعلام، وثانيهما: انطباعاته عن مؤتمر علمي حضر أشغاله في (باريس) سنة (١٨٩٧) فلفت الأنظار فيه مواطن محسوب على العرب يقدح في إنجازات الحضارة الإسلامية التي أشاد بها مستشرقون أنفسهم، في المؤتمر ذاته .

نشر الموضوع الأول في العدد: (١١) من جريدة (المغرب) ونشر الموضوع الثاني في العدد (١٢)، ثم العدد (١٣) من الجريدة نفسها، والموضوعان في النهاية متكاملان، مع اختلاف في الرؤية الفكرية دقة وبساطة، والأسلوب بين لغة عادية مسترسلة، مع ضعف واضح في فقرات، ولغة رشيقة تتكئ أحيانا على السجع، والزخرف اللفظي، ولم يسند في البدء (الرواية) لنفسه، بل دخل (الراوي) بصيغة (الغائب) مباشرة بعد الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال في لغة مسجوعة، تختصر محطات الأسفار، في شبه مقدمة «حدَّث من جاب الأقطار وركب الأخطار، فنال الأوطار، واقتطف زكي الأزهار والبهار من حديقة الأخبار، وكان بالجزاير يرود ذلك الجيش الكرار وترجم أحوال الناس ورزنم وقايع الأمصار، إلى أن بلغ بتقويمه الوقايع درجة الاشتهار، وبتصويره فكره الثاقب جامعا لحوادث الليل والنهار، قال: لما شرفت بتعيين عضو (المؤتمر العلمي)(**) الذي انعقد بباريز المحروسة في شهر سبتمبر سنة ١٨٩٧ اقتضى نظري أن أقضي مآربي من الأسفار، وأنيل (كذا) من المعارف لا يسمع حمله الأسفار بتصفحي قسم السية (كذا) والبلاد التي عن مدح الملاح غنية، من سينها وتبتها وهددها (كذا) وعراق عجمها وعربها، والشام وبهايها، والحجاز وفضلها، واليمن ويمنها، وأرض الروم وغنايها، ولا

تسألني عن البحر المتجمد الشمالي ولا البحر الأصفر ولا عن بحر الصين والهدد (لعله الهند) والبحر الأحمر، ولا عن البحر الأسود والبحيرات والخاجان، ولا عن جزر جابان (ربما اليابان) وجزاير كارولين، ولا عن كينيا الجديدة وجزاير فيليبين، ولم يبق جبل إلا صعدته، وأثر قدمي .... وبسرنديب قبلته وبخدي مسحته بعد أن زرت بيت الله الحرام، وبعد أن عرفت ... البقعة التي ضمت أعضاءه عليه الصلاة والسلام، وزرت المسجد الأقصى ومشهد الحسين الذي عجايبه لا تعد ولا تستقصى .

ثم حللت بمدينة برسة (بروسة) المحمية أول كراسي الخلافة العثمانية وتبركت بزيارة ضرائح أولئك السلاطين الفخلم عليهم من الله صحايب (يقصد سحايب) الرحمة والإنعام، تاقت نفسي إلى رؤية نجلهم الكريم خليفة رب العالمين الذي أعز به الله الملة الحنفية، وحرص به السنة المحمدية مولانا السلطان عبدالحميد خان، فقصدت الأستانة الراضية والجنة العالية، فلما رأيتها وجدتها والله أحسن مما تصفها به الألسن، وفيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين: في جامع ومسجد معمور ودرس غاص بالمتعلمين مغمور، والسعي مشكور، ولله در من تفاءل التاريخ فتحها المشهور بقوله: بلدة طيبة ورب غفور» .

هكذا ينطلق الراوي في عرض (أخبار تنقله) من بلد لآخر، في الوطن العربي والعالم الإسلامي، والأوروبي، والشرقي، يشق الفيافي، ويخوض البحار، ويتسلق الجبال، متحديا كل الصعاب، لكن من دون أن يقول لنا كيف تم له ذلك، ولا كيف عبر من (شرق) إلى (غرب) ولا ماذا فعل، فبدت التجربة خيالية خالصة، لا تنعكس فيها معاناة، ولا نجد فيها صدى لحياة مجتمعات، ولا ما كان يشد (الراوي) نفسه إلى المواقع، باستثناء هذه الوقفة السريعة مع ذلك في (الأستانة) لزيادة السلطان (عبد الحميد) حيث بدت (الاستانة) فعلا «بلدة طيبة» عامرة بالمساجد ورجال العلم الأفذاذ، ولم يزد عن ذلك شيئاً.

إلى جانب هذه الوقفة الأخيرة الأقرب إلى الصدق الواقعي والتاريخي والفني معا: هناك وقفة ثانية في (تونس) فيها ملامح صدق، وهوى كاتب، أما الوقفة الثالثة والأخيرة فيتضمنها الجزء الثاني من هذه (المقامة) في (الحلقة الثانية) من جريدة (المغرب) .

لعل أول ما يلفت النظر في الوقفة الثانية بتونس هو التصاقها بالواقع التاريخي يومئذ وقد مضى على احتلال (فرنسا) بتونس أكثر من عشر سنوات، تحت إدارة مقيم عام فرنسي فيها ، فبدا الوضع هادئاً ، والكاتب راغب في لقاء أعلام سياسة وفكر ودين فيها ، فوفق إلى ذلك كما عكسته كلماته الطافحة بمشاعر الرضى والحبور التي فجرت في نفسه شعراً في مدح أحد علماء (تونس) حلّى به في نهاية هذا القسم مقامته، وقد حدد يوم وصوله إلى تونس بمناسبة دينية هي (عيد الأضحى) المبارك، فقال: «دخلت تونس .... يوم عيد الأضحى، وتشرفت بزيارة نجل الحسينين مولانا (علي باي) مع جل من أحباء الجزائريين، وحضينا بالنظر إلى طلعته المنيعة، فيالها من سعادة، ما أعظمها وأجملها ! ومن كرامة ما أحسنها وما أكملها ، وبقى في الخاطر شيء وهو ملاقاة عالم علمايها المتفق على فضله ونجده: أبناء يافث وسام وحام منية الراغب سيدي (سالم أبو حاجب) إذ كان غايبا عن (تونس) موجها من طرف سعادة المقيم العام في مأمورية تخص تنظيم مسايل شرعية، فلما رجع وقد بلغ الوطن في أقل مايمكن من مدة السفر وقد زاده علمه وذكاؤه من الالتفاتات ما لا يتكيف بحد ولا مطمع فيه لأحد ،حمدت الله وشكرته إذ وفقه للتقوى حتى بلغ أن تعانقنا ، وتصافحنا وتحادثنا وتسالمنا ، أخرجت له أبياتا نظمتها صبيحة قدومه السعيد ، إذ كان عندي ذلك اليوم كالموسم الجديد » (٢٣) ، الذي فجر (قريحته) بالشعر ، فكتب في صاحبه قصيدة من ثماني أبيات منها قوله:

وقطفنا من الأماني ثمارا ورشفنا من الأمـان زلالا
نبّأتنا بـه الشمـال صباحا واهتززنـا له يمينا وشمالا

فحلّى الكاتب بنظمه مقامته، قائلا في نهاية هذا القسم الأول منها: «قبل منى الأبيات وقبلها، وبين سحره ونحره جعلها، ثم أخذنا نتجاذب أطراف الكلام، وما يبديه الدهر من حوادث الليالي والأيام» فيسأله عن أخبار رحلته.

هذا الجزء الأول من المقامة بضمير الغائب أولا والمتكلم ثانياً: بدا ذا صلة وثيقة بالرحلة، مع الإبقاء على (الراوي) المعبر عن تجربة الشيخ (عمر بن ابريهمات) وهو أحد المدرسين بمدرسة الجزائر العليا التي نقلت إليها من مدينة (المدية) سنة (١٨٥٩) بعد تأسيسها سنة (١٨٥٠) هنالك مع أختيها المماثلتين، في (تلمسان) غربا و (قسطنطينة) شرقا، لإعداد إطارات إدارية ودينية وقانونية، كما تكون صلة الوصل (الأمنية) بين إدارة الاستعمار الفرنسي، والمواطنين الجزائريين .

الملاحظ هنا أن هذا الجزء من (المقامة - الرحلة) تم ماديا بعد (مؤتمر باريس) وما لفت نظر الكاتب فيه، وما أثار حفيظته الدينية والقومية من سلوك اندفاعي أرعن صدر عن أحدهم للنيل من دور الحضارة الإسلامية العربية .

وقد جر إلى ذكر (الحادثة) حواره مع صاحبه التونسي (سالم أبو حاجب) في مسار (المقامة) التي نحت نحوا بين (الحكاية) و (الخبر) فتجاذب (أطراف الحديث) بين الرجلين دفع (أبا حاجب) ليسأل (الراوي) أي (عمر بن ابريهمات) «عن غريب الاتفاق، وما ينكره الطبع السليم على العموم والإطلاق» .

وهذا ما أعده (ابن ابريهمات) فنيا كمدخل مشروع لرواية تلك الحادثة التي مصدرها رعونة (جاهل) وتهجمه على إنجازات الحضارة العربية الإسلامية، في (مؤتمر علمي) بمدينة (باريس) سنة (١٨٩٧) وهو الجزء الذي نشر بعد أسبوع في العدد: (١٣) من جريدة (المغرب) ليوم الجمعة ٢٤ صفر ١٣٢١ ماي ١٩٠٣ حيث كتب المؤلف بصيغة

(المتكلم) هنا «لقيت بمؤتمر باريز العلمي رجلا من علماء أوروبا الذين تعاطوا خصوصا العلوم والإشارات الإسلامية، فلو [كذا] يسعني ذكر البعض منهم لذكرت لك العلامة البارع الأستاذ (باربي دوميناز) ...» [٢٤] وهو واحد من علماء (باريس) فضلاً عن علماء مسلمين وعرب، من (القسطنطينية) و (مصر) و (تونس) و (فاس) وغيرها، يشير الكاتب إلى ذلك على عجل، حتى يصل إلى الحديث عن ذلك (العربي) الأرعن الذي ركبه النزق، فانطلق في مؤتمر يجمع عربا ومسلمين ومستشرقين مستخفا بالمسلمين، والعربية وعلومها، فصوره الشيخ (ابن بريهمات) تصويراً ساخراً، معرضا بطبعه الجلف، وطبيعته الوقحة، واستفزازه وتهوره، فقال (ابن ابريهمات): إنه حين أوشك المؤتمر على نهايته و «أتى وقت الفراق، والتفت الساق بالساق: فإذا برجل لم يعرف له إذ ذاك نسب، ولو كان متعمما كما يتعمم أهل جزيرة العرب، فاستأذن رئيس اللجنة في توجيه مقالة، وبدأ قايلا: أيها السادة لا أخفي عليكم فرحي من حيث تحصل عندي أن لب فكركم انصرف إلى ما حسنته الأمة الإسلامية وأحسنته، وشرفته بمباحثها الفلسفية فأتقنته، فأقمتموه مقام الاشتهار واعتبرتموه غاية الاعتبار، فها أنا أدحض لكم حججه، وأهدم لكم أساس بنايه [كذا] ....» .

فيتدخل هنا (الراوي) أي (ابن ابريهمات) كشخصية واقعية معلقا على حمقه في اندفاعه أنه انطلق يهذي مثل «المعتوه، بل الجاهل المخنوع ... صار يدندن كالسنور ويخور خوار الثور، والناس يسمعون وجلهم له يلعنون، فلما أتم سقمه والبزاق قد ملأ فمه: وكان قد لازمني أحد فضلاء اللجنة الأخيار، من أبناء أمجادها الأبرار اشتملت ذاته على غالب أوصاف الأدب، غير أنه لم يعرف لغة العرب، وكان حفظه الله (طلب مني) أن أعجم له تلك المقالة، فلم يسعني إلا إجابته إلى ما طلب، وإسعافه بما رغب، ولو اطلع على الحال لما كلفني تلك الأثقال، فإن تلك المقالة عند من يعرفها لا تلمس لمسا، وتحسب أنها من عمل الشيطان رجس، فمن وقتئذ اطلع على بغض مؤلفها، ودسيسته للمسلمين، وهو يظهر أنه

لهم ناصح أمين، فلعنة الله على الكاذبين، فتبا لعقول تقبل منه هذا الحال، أو تصدق هذا الجاهل بوجه أو حال، وكنت نظن [هكذا] أنه يرجع عن غيه ويقر بجهله وعيه بعدما رماه فحول علم الكلام بنبل الجواب المسكت» فذكر من هؤلاء الذين تصدوا للرد عنه ردودا مفحمة، مبطنة بالسخرية والتوبيخ، مستشرقين فرنسيين، وعربا، ومن بينهم (الراوي) نفسه صاحب (المقامة - الرحلة) .

ثم يعود الكاتب إلى وصف صاحبه، وغموض نسبه، وجنسيته، في سياق الشرح لسائله وجاره في (الجلسة - المقامة) قائلاً : « قال لي ملازمي الأديب بعد ما عجمت له ذلك البهتان الغريب وحياتك يا خليلي ما كان قصدي أولا أن أجيب هذا الأفاك بحرف ولا التفت إلى مقالته بطرف حتى ألزمني الجواب جماعة من الأحباب ....ثم قلت: هل تعرف أصل نسبه ؟ فأجاب بلن، ولا، واستعاذ بالله منه على رؤوس الملأ، وهو كمثل هذا الديك الذي يعمر رأسه وعنقه إذا غضب، ولا يزال هايجا على من يراه وإن دحر وضرب، فإن هذا الطاير المشوم لشره وعدوانه وشينه وشانه يتبرأ منه جميع الناس، ولا يريدون أن ينسبوه إلى بلادهم، فترى بعضهم ينسبه إلى الهند وبعضهم إلى الصين أو السند وبعضهم إلى البلاد التركية، وبعضهم إلى الأقطار الحبشية، وقال بعضهم أنه ينسب (بقصة) إلى (تونس) وأهل تونس ينسبونه إلى الجزائر، وأهل الجزائر ينسبونه إلى (جربة) وأهل (جربة) يتبرأون منه » .

وسرعان ما يقدم لنا الكاتب شخصية جديدة في صيغة (نكرة) هكذا (رجل) تعلن جديدا بالنسبة لهذا الدعي الأرعن، فيقول (ابن ابريهمات) : « تقدم رجل وقال: قد جرى ذكر هذا المشوم وأنا بطهران المحمية وسمعت شيخاً يقول أنا أعرفه حق المعرفة، ولا يسعني أن أبين لكم أصله، وأصفه، وهو عليكم أبين وأوضح، إذ كل إناء بالذي فيه يرشح، وفي القوم شيخ لم يتلفظ بحرف ولا التفت بطرف، حتى إذا القوم جميعا بالصدق تكلموا،

وبشهادة الله التي لا يحل كتمانها أعلموا ، قال لهم: يا قوم مالكم أطلتم في شأن الرجل الكلام وشرحتم ترجمته بين الأنام، والشمس لا تخفى على العيان، أظننتم أن كلامه كلام حتى يضر بفرد من أهل الإسلام ....» مشيرا إلى أن قوى الشر قائمة في كل زمان ومكان، ويبقى دائما مآلها الخسران المبين، لوعد إلهي «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» .

لكن كاتب (المقامة - الرحلة) بدا له أن هذا الرجل الذي وصفه بالمعتوه من (ملكة باهوبال) [هكذا] و «لاشك أنه من طوايف الاعتزال» أصدر حكمه هذا أمام صاحبه التونسي (سالم أبي حاجب) الذي أسف للموقف والظاهرة كما عكستها تلك الشخصية الشيطانية، التي ركبها النزق (خالف تعرف) ولو عبثا واستهتاراً، ووقاحة وتهريجا .

دار الحدث هنا في (تونس) في (مقام) استدرج أحداثا في (مقامات) و أخبار كتعاليف، من رحلات، ولقاءات، وحين هم (الراوي) الشيخ (عمر بن ابريهمات) بمغادرة (تونس) إلى (الجزائر) في نهاية هذه التجربة، حنينا إلى زوجه وأبنائه: عرض عليه صاحبه (سالم) اللقاء بعلمين تاريخيين: مادي وإنساني، أولهما (المدرسة الخلدونية)، وثانيهما علم فكر وتعليم ونهضة وإصلاح هو الشيخ (البشير صفر، ت: ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م) أحد أعلام الحركة العلمية والتعليمية والإصلاحية في (تونس) وأستاذ جيل كبير من أبناء العربية والإسلام في المشرق، وفي المغرب العربي، وكثيرا ما أبدى المصلح الجزائري الشيخ (عبد الحميد بن باديس: (١٨٨٩ - ١٩٤٠) اعتزازه بالتلمذة عليه، فذكر أن تجاهه الوطني والإصلاحي يرجع الفضل فيه إلى (الكراسات) التي قيدت عليها إملاءات أستاذي وشيخي المباشر (البشير صفر) لما في خطه من طول نظر ثاقب، وفي لغته ومنطقه من لغة صدق وحب وإخلاص، لخدمته أمته العربية الإسلامية .

بهذه الإشارة الثقافية ذات الدلالات المختلفة المهمة، يختم (عمر بن ابريهمات) تجربته (الأدبية -الفكرية) في موقفه مع صاحبه (سالم) المثقف السياسي هكذا: «لما أردت الوداع منه طلب مني أن أزور صحبته المدرسة الخلدونية ليقدمني إلى مدرسيها الفخام، فنهضنا في الحين، فكان رئيس مدرسيها ومديرها الأديب اللبيب سيدي البشير صفر، فأطلعوني على نمط تعليمهم والنتائج التي حصلت من ذلك، من يوم اختطاط المدرسة، وبعد تمام الدروس جمعنا الشيخ بداره، ولم نزالوا [هكذا: بدل لم نزل] في بسط [هكذا] وانشراح، إلى أن أقبل الصباح، فشاق[كذا] إذ ذاك خاطري إلى رؤية الزوجة والأولاد، وقدم معي إلى مكينة البخار (القطار) شيخنا» (سالم أبي حاجب) .

تجربة (ابن ابريهمات) ارتبكت أدبيا، لا في أبطالها فحسب، بل في جنسها، فبينما الكاتب يعلن أنه يكتب (مقامة) فيها (راو) و (بطل) و (جمهور) يستمع، أو يصغى لما يروى، وفيها سجع، ومحلاة بشعر ونظم، وآيات قرآنية، وأحاديث نبوية، فإن ظلال (الرحلة) بقيت فيها شاخصة لا بالمسار الإخباري فحسب، بل حتى في الشخصيات (الواقعية) وفي إعلان المواقف الإصلاحية مباشرة، مع اهتمام بالرموز السياسية الدينية خصوصاً، في (تونس) و (تركيا) ذاتها، من خلال الثناء على السلطان (عبد الحميد خان/ الثاني) .

لكن الكاتب مصر على اعتبار تجربته (مقامة) لبعض المسوغات، الفنية، والفكرية، في إدارة الحديث، على شكل (رواية) و (بطل) وإن بشكل مهتز، وفي فعل (البطل) ذاته حين ينهض بدورين معا (البطولة / والرواية) حين يقدمه كشخصية مغامرة فذة، جابت الأقطار وركبت الأهوال في أعالي البحار، كما جازفت في أعالي الجبال، متلمسة طريقها بين مختلف الأقوام، فما تركت قدمها موقعاً إلا وطأته، ولا قوما إلا عرفتهم .

لكن ذلك ورد تعميما، في شبه سرد وتعليق، من دون تحديد مضبوط للمواقع، بحاراً، وجبالاً، ولا تقديم صورة ما عن مجتمعات احتك بها، وتفاعل مع الحياة فيها، فهو هنا موزع الاهتمام بين خيال (يمتطيه) وواقع يسجله، لكنه ذكر كل ذلك وهو على عجلة من أمره، بقي فيه وجدانيا: أكثر ارتباطا بفضاءات علمية، ورجال علم وتربية، وعلماء دين، مع حرص في كل ذلك على الصياغة الأدبية، ومراعاة السجع غالبا حرصاً على التأثير في المتلقي، وتوفير المتعة (الفكرية) و (الفنية) له .

وقد حرصت على إثبات معظم فقرات هذه التجربة لما تعبر عنه من مستوى المرحلة أدبيا أولاً ولما تعكسه ثانيا: في العلاقة بين (غرب) مستعمر، وشرق عربي محتل، ثقافيا وسياسيا ودينيا و (استراتيجيا) من الناحية الاستعمارية في كل الحالات، وثالثاً وأخيراً: لجعل هذا النص في متناول (الباحثين) وقد بات الوصول إليه متعذراً، أو مجهدا جداً بدنيا ومالياً .

والتجربة إذن بكل ظلالها تبقى من الحقول الخصبة في هذه المرحلة مع أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، لا في الجانب الأدبي الفكري الخالص فحسب، بل أيضا في الجانب السياسي والديني، والاجتماعي، كما أنها في عمقها تبقى وطنية قومية لما عبرت عنه من موقف للشيخ (عمر بن ابريهمات) دفاعاً عن أمته، ولغتها، ومهاجمة خصومها، وأخطرها وأنذالها خصوم الداخل، فالخصم الخارجي واضح ومعروف، أما الخصم الداخلي، من الوطن العربي أو العالم الإسلامي فهو أخطر وألعن، حين يبيع نفسه ودينه للعدو وللشيطان، فيصير عونا للأجنبي على أمته ووطنه: فكريا وحضاريا، وهي أنذل صور العمالة، وأقبحها، تجعل العميل في الدرك الأسفل من القذارة، مصدر سخرية، وهو يقف في صف الأعداء: يحارب لغة أمته، ودينها وانتماءها الحضاري، هو سلوك النفوس الضعيفة، وقد فتك بها الجهل والفراغ الروحي الرهيب .

لقــد برزت محاولة (عمر بن ابريهمات) في إطار فكري، بملامح إصلاحية، تطرق موضوع (الصراع الفكري) بين حضارتين، حضارة مغزوة تكاد تستسلم لقدرها التعيس، وحضارة غازية شرسة نجحت إلى أبعد الحدود في جعل (نماذج بشرية) ذات استعداد للانسلاخ عن أمتها، وانتمائها: لغة وعقيدة، لتكون بفكرها وسلوكها في النهاية عونا للغازي المحتل على وطنها وجودا وانتماء حضاريا، ومواطنيها، قيما ومبادئ، فاقتضى الموضوع أن تكون المقامة موضوعاً مباشراً، بطابعه الخطابي الصحفي التعليمي، للتعبير عن موقف ورأي: من موقف سلبي رآه الكاتب ضاراً بالأمة والوطن .

فالتجربة خطوة أولى في هذه الفترة المتقدمة من (الأدب الإصلاحي) ولا أقول (الفكر الإصلاحي) لأن لهذا الأخير سبقا في مواجهة الاحتلال منذ (١٨٣٠) بينما النص الأدبي النثري الفني الخالص، قد تأخر عن ذلك، خصوصا بهذا الشكل .

فكانت تجربة (ابن ابريهمات) إسهاما أدبيا رغم مباشرتها، ونزعتها الخطابية، وسماتها التعليمية، التي لا تجردها من منحاها الإصلاحي، الذي نحاه الكاتب، رغم ارتباطه (الوظيفي) بإدارة الاحتلال الفرنسي، التي شرعت منذ مطلع القرن العشرين توطن نفسها عل تقبل الأفكار التي لا تتجه مباشرة لتهديد وجودها في الجزائر، أو التشكيك في موقعها ودورها، وأهميته، الأمر الذي كان يدركه الكتاب الجزائريون المرتبطون بالإدارة الفرنسية، أما الكتاب غير المرتبطين بهذه الإدارة ففضاء الحركة لديهم أوسع بكثير، وقد مضت الأيام تزيده اتساعاً، وحيوية، خصوصا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى في مختلف الأنواع الأدبية، فماذا هنالك من هذا النوع الأدبي في هذه المرحلة، خصوصا ابتداء من عشرينات هذا القرن العشرين ؟.

(٣)

لقد أسفرت (الحرب العالمية الأولى) عن نتائج مهمة، جعلت (الحركة الوطنية الجزائرية) تتقدم خطوات أخرى سياسيا وفكريا، كما شرع يتسع المجال أمام الصحافة الوطنية العربية، والأقلام الجزائرية فيها، في مناخ شهد (حركة الأمير خالد: ١٩٢٠ - ١٩٢٢) و(نجم شمال إفريقيا: ١٩٢٦) و (جمعية العلماء: ١٩٣١) التي بكر رئيسها (ابن باديس) منذ العشرينات لتأسيس الصحافة الوطنية .

فكانت هذه الصحافة الوطنية العربية وسيلة دفع قوي للحركة الفكرية، ورافداً أدبياً برزت فيه عدة أعمال أدبية، في فن المقامة نفسها، ومن بين الصحف التي أسهمت في نشر هذا النوع الأدبي، جريدة (النجاح) بقسطنطينية، لمؤسسها الشيخ (عبد الحفيظ الهاشمي) سنة (١٩١٩) التي كانت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع، واستمرت حتى سنة (١٩٥٦) مع توقف خلال الحرب العالمية الثانية، بين (١٩٣٩) و(١٩٤٥) ظهرت أسبوعية، ثم يومية في النهاية، وهي «الجريدة العربية اليومية التي ظهرت في القطر الجزائري قبل الاستقلال، وتعد أطول الجرائد العربية الجزائرية عمرا وأحسنها إخراجاً» [٢٥] تفتح صفحاتها لمختلف القضايا: شعرا ومقالة وسواهما، ورد تحت عنوانها أو اسمها أنها (جريدة حرة) تبحث في شؤون «العلم والدين والتهذيب والأدب والسياسة» وانطلقت اصلاحية ثم اعترى خطواتها تذبذب كبير بفعل العامل التجاري في النشر وتحاشي التصادم مع سلطات الاحتلال الفرنسي، لكن صفحاتها بقيت منبرا للكلمة الأدبية، وعليها نشرت مقامات الأديب (محمد الصالح خبشاش) المولود سنة (١٩٠٤) بولاية (قسنطينة) حيث توفي سنة (١٩٤١) بعد وفاة أستاذه (ابن باديس) بنحو سنة، أما مقاماته (زفرات القلوب) فقد نشرها بجريدة (النجاح) خلال سنة (١٩٢٧) في شهري (فيفري) و (مارس) تحت

العنوان العام السالف الذكر، مع تردد غير سليم في اختيار الراوي بالمقامات الذي يحمل رؤية الكاتب فنيا وفكريا، أولا وأخيراً .

بدأ الكاتب في نشر مقاماته بالعدد (٤٠٦) من (النجاح) ليوم الجمعة شعبان ١١/١٣٤٥ فبراير ١٩٢٧، وانتهى منها في العدد: (٤٢٢) ليوم الأحد ١٦ رمضان ١٣٤٥هـ/ ٢٠ مارس ١٩٢٧ .

لكل (مقامة) في العدد عنوان جديد، تحت العنوان العام الملازم لكل الحلقات (زفرات القلوب) أما توقيع هذه الحلقات فهو في حلقة باسم (سطيح) بطل مقامات (حافظ إبراهيم: ١٨٧١- ١٩٣٢) في (ليالي سطيح) وفي حلقة باسم (الحارث بن همام) الرحالة المتعفف الراوية في مقامات الحريري (٤٤٦ - ٥١٦هـ/ ١٠٥٤ - ١١٢٢م) فكلا الاسمين مرتبط بنوع (المقامة) .

وقّع الكاتب الحلقة الأولى باسم (الحارث بن همام) الذي نهض لزيارة مدينة قسنطينة) في (الجزائر) بحثا عن (الشيخ سطيح) ووقّع الثانية باسم (سطيح) وقد زاره في ليلة شتوية (الحارث) يدعوه للقيام برحلة، وهكذا مقامة بتوقيع (الحادث) وأخرى بتوقيع (سطيح) بدأت في (الحلقة الأولى) في الجريدة بالحارث، وانتهت بالحلقة الرابعة عشرة: بسطيح .

كانت الحلقة الأولى أشبه بتمهيد، عنوانها الفرعي (إلى من أكتب) ؟ لائحا باللائمة على الوضع الثقافي الراكد، حيث انصرف الناس إلى التكالب على الكسب المادي، فآثر (الحارث بن همام) أن يمارس الرحلة بحثا عن الحق، وإدراك أسرار الكون: «جبت في الأقطار، من قطار إلى قطار، وبابور (باخرة) إلى بابور، حتى وطنت قسنطينة المنيعة، فسألت أحد الساكنين بها عن شيخ يدعى (سطيح) أحد كهان أمة مضت، فتعلمت وترقت)[٢٦] .

فأرشده إليه (في خانه ... يقرأ الحكمة ويجلي منها ما راق ودق ... ذهبت إليه مسرعا وبيدي هذه العريضة، فسلمت عليه، وقدمتها له، وإذا هو يرتل آيات التبجيل والإكرام ويخبرني بأشياء لم تك قط في مخيلتي .. فأصغيت إليه هنيهة ما وأنا مطرق برأسي ثم استأذنته بالخروج، فأذن وقال: سأجيبك وأحقق لك بإذن الله ما تفتش عنه في طابع عنوانك، والله يكلأ الجميع» .

تنطلق هذه المقامة إذن من ظرف بدا فيه ضيق (الراوي) بركود في الحياة الثقافية، فاتجه نحو (قسنطينية) ومعه (عريضة) لم يكشف عن مضمونها الذي يطلب له إجابة من الشيخ (سطيح) فلا يبادر هذا، بل يتريث ويعده بالإجابة كتابة بالبريد .

ويبدو ضيق (الراوي) في الحلقة الثانية بمحيطه، فكان عنوان الحلقة (عجائب الأقدار) التي جعلته يعيش واقعا، تختلف فيه الأهواء وتتصادم، كما تتباين المشارب والعقائد واللغات، فهو مكروب لتخلف محيطه وحياته «بين شعب تعددت مذاهبه، وتنوعت مشاربه وتطورت أزياؤه، واختلفت لهجاته، هذا يلفظ بالضادين دالا» وغيره عل العكس منه، كما أن هناك من هو من أصحاب الطربوش (وآخر) من ذوي العمامة والبرنوس، وهذا يعبد الأوثان، وذاك يؤمن بالرحمان، والآخر يرفض جميع الأديان، والأكثر لا يعرف من العالم أجمع سوى الدرهم الرنان [٢٧] .

هذا الواقع الذي بدا موبوءا جعل الراوي يلوذ بعزلة، حتى اقتحم عليه ذات ليلة عزلته حلم يوقظه من نومه «سطيح، سطيح، قم» حين سمع طرقا على الباب، ولم يكن الطارق سوى (الحارث بن همام) الذي جعل (الدهشة الكبرى والحيرة العظمى) تستولى على (سطيح) وهو يصغى لزائره، يحدثه عما لاقى في الأسفار من عجائب الأقدار، وعما سمع في الأمصار من طرائف الأخبار، فأزال عني الهموم والأتراح، وجلب لي المسرة

والانشراح، فتمنيت في خبايا الضمير أن يكون لي قريباً، وعلى نائبات الدهر معينا، وبعدما ملك قيادي وسلب بريق مقوله فؤادي ألح علي أن نتحد معا ونكتب مقالات رنانة... يبلغ صداها إلى المشارق والمغارب، ونأتى فيها بالعجائب والغرائب. فلبيت الطلب، وعوض أن أقول: لا، قلت نعم، فإلي الأمام يا بن همام».

وهكذا يأخذ (الحارث) منه الدور، محليا حديثه بالشعر، كشأن كل كتاب المقامات، من دون نسبة، معلنا قوله «في رأسي عقل وفي يمناي قلم»[٢٨] اندفع بها إلى الحياة، في المدينة، فقال: «خرجت ذات يوم لأروح النفس من العنا ثم أرجع بها إلى حيث السكنى، إثر الرجوع حدثتني المشؤومة بالطواف على أنهج المدينة، فقطعتها نهجا نهجا، على حين المرور .. بحارة عربية، إذا بضجيج يطرق سمعي، فالتفت حولي، ثم هو يعاودني أذني، فعدت نفسي (كذا) وقلت ما هذا ؟.

أجابت: ألم تعلم ما هذا إلى حد الآن ؟ هذا مكتب قرآني، يتخرج منه كل عام سواد، وأي سواد، ومن حوضه نهلت بعض الصدور العظام ؟! فكان منهم القاضي الشهير، والمدرس النحرير، والسياسي الخبير، والكاتب الخطير.

أكبرت أمره، وأسرعت بالدخول إليه خببا، دخلته فوجدته مكتظا بصبية ملتفين بسيدهم التفاف الهالة بالبدر، والسوار بالمعصم، فحييت جميعهم، ودنوت من سيدهم الهمام.

بعد الخوض في الحديث، ورشف كأس المداعبة أخذت مقعداً لي في زاوية منه لأرى ماذا يجري من سنن التعليم والنظام لهؤلاء الصبيان الذين هم أبناء زمننا ومفخرة شعبنا الكريم، يوم الزحف على أولى المكر والطغيان.

بينما أجيل الطرف في توقد الذكاء ... شاهدت طريقا وعر المسالك، لا يشق لها غبار، ولا ينجو منها فار، فبعدت علي شقتها ولم أستطع وصفها، لكن على رغم المتاعب واقتحام المصاعب أظهرها للعيان، ألا وهي طريقة التعليم العقيم بمكاتبنا » التي تقوم على الحفظ من دون فهم، فتتبدد الأعمار سدى، بدل أن تنفق حيوات الناس في الفهم الصحيح لكتاب الله والأخذ من معارف العصر .

فبهذا انطق (صالح خبشاش) راوي مقامته وبطلها المعاصر (الحارث بن همام) الذي يقترح علينا نهجاً تربوياً جديداً لم يفصح عنه، بقدر ما عاب علينا نهجا تعليميا عقيما ينطلق من الكتاتيب القرآنية، يقوم على الحفظ والتلقين، ليس غير .

ثم ينسحب مفسحاً للسيد (سطيح) الشخصية التي قاسمتها الأدوار، فيرد عليه في (المقامة) التالية، قائلاً: مهلا، على رسلك يا بن همام ؟ أتنكر عقائدنا وعوائد أبائنا الأولين » [٢٩] وهو ضرب من (الهمز) الاجتماعي، والغمز الإصلاحي، موعزاً بوجود محيط رافض للتغيير والتطوير، فيرى أخذ بعض البلدان العربية والإسلامية بالمناهج الحديثة زيغا، لكن (سطيحا) سرعان ما يقر لصاحبه (ابن همام) بسداد التفكير : تيقنت أن لصاحبي الحارث بعض الحق فيما يقول» لذا يدفعه للإمعان فيما بدأه سابقا ليكمله في المقامة التالية، وقد خرج يسير «الهويني بين مروج زاهرة ومياه متدفقة» [٣٠] حتى انتهى أخيراً إلى أحد المساجد في المدينة، حيث وجد «زمرا من طلبة العلم، منكبين على استقراء مسائل الدروس، والمطالعة في الطروس، فاستعلمتهم عن المنتصبين لخطة التدريس، فأجابني أحدهم و (كأنه يفهم) عليك بسيدي فلان ينصحك نصحا تاما) ثم (فلان) ثم (علان) (فشكرته وأدخلت قدم رجلي في نعلي، وذهبت لهؤلاء ... فأما الأول فوجدته مجهدا فكره في تصريف (كان) وإعراب (قام زيد) ...) فبدا له أن العملية التعليمية غارقة في الاجترار، والتقليد والتكرار المميت، فحملت (المقامة) رؤية (خبشاش) لضرورة الإصلاح في العملية التربوية، عبر شخصية (الحارث) الذي لم يكد

يفرغ من عجبه وعتبه وضيقه بمناهج التدريس المتبعة، حتى التفت إلى صاحبه (سطيح) يستزيده مما في جعبته، من أخبار، بما فيها رأيه في (الشبيبة) يومئذ، فيجيبه صاحبه أن «الشبيبة التي رضعت أثداء الكليات الكبرى، والليسيات، فلا رجاء بقي لنا فيهم، لكونهم أصبحوا من غيرنا مخالفين لنا في العوائد وكثير من المقاصد، أما الشبيبة التي تشبعت من مناهل العربية وحرمت اللغة الفرنسية فهي التي عليها المعول» (٣١) .

ثم يعلن (الحارث) فرحته صحبة رفيقه (سطيح) بالربيع و بمنظره «الفتان سبى مقلتي أنا ورفيقي سطيح، بتنا وباتت عيوننا تراقب الجوزاء» (٣٢) .

ثم تنتهي بهما الجولة إلى (غار) رأيا فيه شبحا، بشريا، قد أحرز «الشهادة العليا في المكر والخداع» (٣٣) وهي رؤية في واقع الدجالين، حتى في قمصان الدين، كما حمل الكاتب شخصية (سطيح) هنا هذه الرؤية .

ثم يعلن (الحارث) حضوره لصلاة الجمعة، صعد فيها الخطيب المنبر، وفي يده اليمنى عصاه، وفي الأخرى ورقة «عظم حجمها وكثر لفظها وقل معناها ... وقال: أيها الناس أقيموا الصلاة وأتوا الزكاة، صوموا رمضان، حجوا البيت الحرام .. فما بال سادتنا الخطباء يكررون أقوالا محكية مرت على تدوينها قرون» (٣٤) .

فالرؤية النقدية الإصلاحية شملت المناهج التعليمية، والدينية في المساجد نفسها، وقد باتت الخطب فيها صيغا محنطة، لا تبعث في الناس حياة تنير طريقهم نحو الخير والحق والفضيلة بلغة جديدة، ورؤى متطورة .

ثم صوّر لنا (سطيح) قضية الخلاف عن بداية (شهر رمضان) فبدا هناك شيء من اتفاق ما غير منطقي على اعتبار أن يوافق الفاتح من سبتمبر «كل سنة على الدوام»(٣٥) فأورد ما دار في الموضوع من حوار مبتذل .

ثم ينتهي (الحارث) إلى أن الشعب الجزائري نفسه خضع للاستبداد غارقا في طلب اللذات، و «تعاطي الموبقات» (٣٦) فيطلب من صاحبه (سطيح) الانتقال إلى عالم (مسرح) التمثيل، ويكون «ملتقانا في الليل» فاستجاب صاحبه (سطيح) الذي أعلن فشل (التمثيل) و (الممثلين) لأن «فن التمثيل مبنى على إتقان اللغة والحركات، وقد أخلّوا بكليهما» (٣٧) .

ولا يتأخر (الحارث) في الحلقة التالية للإدانة، حين عرَّض بالفرقة التي «هدمت ... القواعد النحوية، فرفعت المنصوب، وخفضت المرفوع» (٣٨) .

وأخيرا يغامر (سطيح) فيدعو صاحبه (الحارث) إلى نزهة ليلية للتفرج على الطبيعة، والسماء ونجومها، حتى انتهى إلى آذانهما خصام، وجدل منحط في لغته وأفكاره، فأعرض عن البحث في كنه مضمونه، مكتفين بصحبة الليل وجلاله، وضياء النجوم وسحرها حتى «مد الفجر أسلاكه اللامعة، فاختفى (سهيل) وأقبل النهار ومضى الليل، فأبنا إلى المدينة، ونفوسنا مملوءة موعظة وعبرة» (٣٩) .

وبهذه الخاتمة على لسان (سطيح) تبرز النزعة الإصلاحية التعليمية، وهي نزعة تنشد مجتمعا صحياً ،مستقيما في علاقاته، في سلوك أفراده وتمدنهم، فضلاً عن الرؤية الإصلاحية في التعليم، والخطب المسجدية، التي عليها جميعا أن تتلخص من القوالب الجاهزة المجترة .

ورغم نشدان الكاتب قالب (المقامات) في عمله هذا أي (زفرات القلوب) فقد توزعها أكثر من نوع أدبي، يلقي بظلاله عليها: الحكاية، والخاطرة، والمقالة القصصية، رغم إصرار الكاتب عليها كمقامة أو كمقامات بقي ثابتا في الإلحاح عليه، عبر شخصيتي (مقامتين) تاريخيتين، وعبر الصياغة نفسها التي لم ينجح فيها دائما، فلم يتخلص تماماً

من أسر المقال القصصي، مع نزوعه الإصلاحي، وانجذابه لجوانب من مظاهر الطبيعة، ليلا أو ربيعا، أو حتى في الحياة اليومية الصاخبة بالمدينة، وقد أعطى الكاتب كل حلقة من هذه الحلقات الأربع عشرة عنوانا، تحت العنوان القار (زفرات القلوب) فكانت تلك العناوين على النحو التالي، أعرضها لإفادة الباحثين، ولما لها من دلالة فكرية وإصلاحية أيضا، مبتدئا بأولها: ١ - إلى من أكتب ٢ - عجائب الأقدار ٣ - على حين المرور ٤ - مجون الأبناء. ٥ - من قمة منارة. ٦ - في عالم الرؤيا. ٧ - جاء الربيع. ٨ - ما أجملك يا غار! ٩ - حضرت الصلاة ١٠ - الهلال والناس. ١١ - ماذا دهاك؟ ١٢ - السرك والتمثيل والتحية للمدير. ١٣ - في المرسح (أي المسرح). ١٤ - موعظة واعتبار.

فالرؤية الإصلاحية الوطنية جلية لدى (صالح خبشاش) في إدانة التخلف عموما، والركود، والاجترار في أساليب التعليم التقليدي، وفي خطب المساجد نفسها، فصاغ ذلك عبر شخصيتيه الأساسيتين المستمدتين من نفس الإطار المقامي: شخصية (الحارث بن همام) من (مقامات الحريري) قديما وشخصية (سطيح) من مقامات (حافظ إبراهيم) حديثا، فحمّلهما الكاتب معا وجهة نظره، تنازعه أكثر من شكل أدبي، ألقى بظلاله عليها، فبعد السمات الأساسية للمقامة أبطالا، وحدثا من دون أدنى نزوع للاحتيال أو الشحت: هناك سمات الحكاية المبسطة من دون أي عنصر للتعقيد أو التكثيف، كما أن هنالك سمات (المقالة القصصية) التي تعتمد القص لكن بلغة مباشرة، لم تحفل بسجع كثير، بل كانت الجمل المسجوعة تأتي عفويا تقريبا، من دون افتعال واضح، ولا تقعر لقوى أو تعبيري إلا نادرا، فلم ينشد الكاتب غرابة لفظ، ولا شوارد لغة، ولا تصيد إشارات ورموز، فهو إن أفسح أحيانا المجال للسجع بمرونة تامة فإنه من دون مبالغة ولا افتعال، فعالج قضايا سياسية وثقافية واجتماعية وفكرية من زاوية إصلاحية، فبقدر ما كان على ضيق كبير مما تعج به الحياة وعالم النّاس من (نشاز) وبعض الفروق التي سببها القيم الأوروبية الوافدة، كان أيضا ساخطا عن التخلف الذي يقعد بالناس عن التطور،

فيجنح بهم إلى الجمود، فبصرف النظر عن الفروق فيما يرتدي الناس هناك البون الشاسع بين ذوي القيم المادية، والقيم الروحية، معرّضا بذلك قائلاً «هذا يعبد الأوثان وذلك يؤمن بالرحمان، والآخر يرفض جميع الأديان، والأكثر لا يعرف من العالم سوى الدرهم الرنان» .

ومن هذا المنطلق ذاته يسخر من الإصرار على أساليب التعليم التقليدية في التعليم الوطني، الذي لا يضمن النهوض المرجو بتعليم نوعي لشباب يتطلع إلى التغيير والإصلاح والتحرير الوطني، مثلما يسخر بأسلوب مباشر من ركون أئمة خطباء إلى أشكال باردة في خطبهم التي غدت صيغا محنطة مخاطبا الخطباء، قائلا عنهم: «يكررون أقولا محكية مرت على تدوينها قرون، وكثيراً ما شاهدنا من المصلين جلبة السعال وكثرة النعاس، لكونهم لا يفهمون ما تقولون» .

فالموقف الإصلاحي فكريا واجتماعيا وحتى حضاريا، واضح في لغة الكاتب وأسلوبه المباشر، فدعا إلى الأخذ بأسباب التطور، مع الحرص على الاحتفاظ بالشخصية الوطنية ومظاهر الانتماء لها لغة وفكراً، مؤكدا موقفه، داعيا بإصرار للنهوض والتوعية، رغم يأسه من هؤلاء الذين درسوا في الكليات والثانويات الفرنسية، وقد صاروا ينظرون بازدراء لمواطنيهم، فيعادون لغتهم وحضارتهم، ولا يختلف في السلبيات عنهم أولئك الذين آخذوا «شيئاً زهيدا من العربية وطرفا من الفرنسية ». فحالهم كحال (الغراب) حين أقدم على تقليد (الحمامة) في مشيتها، فأضاع شخصيته، ولم يفلح في تقليده .

وهكذا تبدو النزعة الإصلاحية ذات وجوه مختلفة لدى الأديب (محمد صالح خبشاش) في فترة بدأ فيها ازدهار (المقالة) في النثر الجزائري الحديث بعد الحرب العالمية الأولى مما أمد نوع (المقامة) بعناصر الحياة، فشاركتها في الموضوعات والقضايا، واقتربتا من بعضهما حتى في الأسلوب نفسه.

ومن الكتاب الذين طرقوا فنّ (المقامة) في الأدب الجزائري خلال القرن العشرين أمير البيان (الشيخ محمد البشير الإبراهيمي) المولود سنة (١٨٨٩م) المتوفي سنة (١٩٦٥م) لكنه كان طرقا أدبيا في شكل تحية حمّلها «صاحبين من تصوير الخيال أو من تكييف الخيال، تمثلهما الخواطر تمثيل صفاء، وتقيمهما في ذهني تمثال وفاء» (٤٠) كما قال بنص عبارته .

وأصل (الموضوع) تأبين (ابن باديس) بهذا النص الذي أرسله إلى رفقائه وطلبته في (قسنطينة) من منفاه في (آفلوا) بالجنوب الغربي الجزائري فأطلق (الشيخ الغسيري) على التجربة اسم (مقامة في رثاء الإمام ابن باديس) كتبها (الابراهيمي) سنة (١٩٤١م) وأرسلها، ولم تنشر في جريدة (البصائر) التابعة لجمعية العلماء إلا في العدد (٧٦) سنة (١٩٤٩م)، فنشرت بعدما حذف منها (كثيرا) مما لم تكن الظروف تسمح بنشره تحت الاحتلال الفرنسي يومئذ، وهو يحكم قبضته أكثر من ذي قبل، بعد الإفراج عن (الإبراهيمي) في ظروف ما بعد أحداث (ماي - جوان ١٩٤٥م) لذا عنونها الكاتب هكذا: «مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة» وهي مناجاة لقبر صاحبه (الشيخ عبدالحميد بن باديس) رحمه الله، قائلا «سلام من أصحاب اليمين، وغيوث من صوادق الوعود، لا صوادق الرعود ... وسوافح من العبرات تنحل عزاليها، ولوافح من الزفرات تسابق أواخرها أو اليها، على الجدث الذي التأمت حافتاه على العلم الجم، والفضل .. وسلام على مشاهد كانت بوجوده مشهودة، وعلى معاهد كانت ظلال رعايته وتعهده عليها ممدودة، وعلى مساجد كانت بعلومه ومواعظه معمورة» .

فقد بدت التحية واضحة بين (المرسل) و (المستقبل) تستدرج المكان الذي كان مغمورا بالعلم الخالص، والعمل الدؤوب، من (ابن باديس) وزملائه وطلبته .

فكان ذلك أشبه بمشاعر عامة للتقديم، كي يتخيل صاحبين له، من إبداع (مخيلته) يتهيآن لاستقبال أوامره، وحمل خواطره، فشرع يخاطبهما بلغة راعى فيها سجعه الخفيف

اللطيف، ورشاقة عبارته، رغم بعض من غموض في كلمته التي لا تبقى قلقة كثيرا، في إطار الصورة المختارة، فقال: «بكرا صاحبي فالنجاح في التبكير، وما على طالب النجح بأسبابه من نكير، تنجحا لصاحبكما طية، ولا تبلغ إلا بشدّ الرحل وبتقريب المطية، فقد ختمت - كما بدئت الأطوار بدولة الرحال والأكوار» .

« سيرا على اسم الله في نهار ضاح، وفضاء منساح، ضاحك الأسرة وضاحْ» «سيرا روحي فداؤكما، من رضيعَي همة وسليلَي منجبَة من هذه الأمة، وأتيا العُدْوة الدنيا، فثم المنتجع والمراد، وثَم مناخ المطايا، على حُلاّل الحق، وجيرة الصدق، وعشراء الخلود الذين محا الموت ما بينهم من حدود ... وخصا القبر الذي تضمن الواعي السميع، والواحد الذي بذّ الجميع» .

فيدعو الطيفين الخياليين لينوباه في وقفة عن قبر صاحبه العالم العامل: «فقولا له علي :

ياقبر، عز على دفينك الصبر ... يا قبر ما أقدر الله أن يطوي علما ملأ الدنيا في شبر ! .

يا قبر ما عهدنا قبلك رمسا، وارى شمسا، ولا مساحة تكال بأصابع الراحة، ثم تلتهم فلكا دائراً، وتحبس كوكبا سائرا، يا قبر قد فصل بيننا وبينك خط التواء، لا خط استواء، فالقريب منك والبعيد على السواء !

يا قبر ؟ أتدري من حويت ؟ وعلى أي الجواهر احتويت ؟ إنك احتويت على أمة في رمة، وعلى عالم في واحد !» (٤١) .

ثم يحمل صاحبيه قوله لصاحب القبر: «يا ساكن الضريح، نجوي نضوٍ طليح، صادرة عن جفن قريح، وخافق بين الضلوع جريح، يتأوبه في كل لحظة خيالك وذكراك ..

يا ساكن الضريح، أكُنّي ؟ أم أنت كعهدي بك تؤثر التصريح ؟ إن بعدك أتعب من بعدك ... وأيم الله لقد تلفتت بعدك الأعناق واشرأبت وما ماجَت الجموع واتلأبت، تبحث عن إمام لصفوف الأمة، يملأ الفراغ ويسد الثلمه، فما عادت إلاّ بالخيبة، وصفر العيبه .

يا ساكن الضريح، مت فمات اللسان القوال، والعزم الصوال، والفكر الجوال، ومات الشخص الذي كا يصطرع حوله النقد، ويتطاير عليه شرر الحقد، ولكن لم يمت الاسم الذي كانت تُقعقَع به البُرد ، وتتحلى به القوافي الشرد ، ولا الدوي الذي كان يملأ سمع الزمان، ولا يبيت منه إلاّ الحق في أمان، مات الرسم وبقي الاسم، واتفق الودود والكنود على الفضل والعلم» .

ثم يتقدم الكاتب خطوة نحو نهاية (المشهد - الموقف) مهنئا (ابن باديس) على ما قدّمت يداه من (باقيات صالحات) مطمئنا له في مثواه، أن تلاميذه على دربه سائرون «دعاة إلى الحق بين عباده، يلقون في سبيله القذى كحلا، والأذى من العسل أحلى» .

قائلا في الختام: «سلام عليك في الأولين، وسلام عليك في الآخرين، وسلام عليك في الحكماء الربانيين، وسلام عليك إلى يوم الدين» (٤٢) .

لقد بدا المشهد والموقف جامعا بين عناصر هذا النص في نوع المقامة، وقد أشبع بالشخصيتين الخياليتين اللتين أبدعهما خيال الكاتب لتبليغ رأيه، ورؤيته في (إنجاز بن باديس) الفكري، وفي الفراغ الذي أحسه الكاتب كبيرا يعسر أن يملأ ببساطة .

واستمسك الكاتب بذلك في هذا السجع الخفيف اللطيف، الذي نوع في موسيقاه، وشكّل في مقاطعه، فحمّله ما كانت تمور به نفسه من أوجاع وطنية، وأشواق إنسانية، قوامها: الوفاء والحب والإخلاص، والصدق، صدق ثبات وأقوال وأفعال .

فإن خلت التجربة في النهاية من (البطولة) التقليدية في (المقامة) فقد عوضها الكاتب بضرب آخر من (بطولة) معينة، هي هذه (الشحنة) المتراصة العناصر، المتلاحقة من العواطف الإنسانية الرقيقة، فكان تروح الكاتب هي (بطارية) هذه الشحنة التي توسلت بنكرتين، أبدعهما خيال (الكاتب) على نحو ما كان يفعل الشعراء، منذ خاطب امرؤ القيس مرافقين وهميين قائلاً :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل　　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وتبقى هذه (المقامة) أحد النماذج الجيدة في النثر الجزائري الحديث، من النماذج التي تعبر عن شخصية (الإبراهيمي) كما تعطي فكرة عن إبداعه بهذا الأسلوب الذي جاري فيه بنجاح مواطنه (المقري) صاحب (نفح الطيب) في المبدعين الأولين .

والملاحظ في النهاية أن النماذج المقامية تعددت، في القرن العشرين، فاختلفت بعض الشئ، عن القرن التاسع عشر، بفعل المناخ المتطور في الجزائر سياسيا وثقافيا، فضلا عن شيوع الطباعة، وتأسيس الصحف، فكل مقامات القرن العشرين نشرت في البدء في الجرائد الجزائرية، مع اختلاف كتابها إمكانات فكرية وأسلوبية، كاختلاف مشاربهم .

لكن النزعة الإصلاحية للخروج من التخلف، ونبذ التقليد والجمود، بدت قضية جوهرية مع استماتة في التأكيد على ضرورة الاحتماء بالهوية الوطنية، من خلال التشبث برمزيها (اللغة العربية) و (الإسلام) اللذين ينبغي أن ينهضا أيضا بدورهما عبر كل الوسائل، وبمنهج جيد في تعليم العربية، وتقديم الإسلام في صورته الناصعة برجال أفذاذ متمكّنين، علما، وأداة تبليغ، كما امتدت النزعة الإصلاحية إلى (التشهير) ببعض (الآفات الاجتماعية) مثل تهميش العلم والعلماء، وسيادة منطق المال، في أيدي جهلاء، فغدا موقع المرء بما يكسب من مال وجاه تبعا لذلك، لا بما توفر عليه من أخلاق وعلم وحكمة، وحسن رأي وتدبير .

هو الأمر الذي جعل للأميين، والجهلة (سيادة) و (قيادة) وجعل العلماء يعانون في حياتهم ومعاشهم، فيدينون واقعا سادت أراذله، فباتت لهم الجرأة الكاملة لا للنيل من العلم والعلماء، بل للقدح في حضارة الإسلام إنكارا وقحا لما قدمته هذه الحضارة الإنسانية للبشرية جمعاء، في العالم كله .

لكن ذلك كله لم يندثر معه الأمل في واقع بديل، على رجل الفكر والعلم والدين والتعليم أن يهيّئ أسبابه، بإجادة أدوات العمل، وتحسين مناهج العمل، في التعليم لإعداد جيل متعلم واع قوي، وفي الدين لينهض علماؤه بدورهم الإنساني بعيدا عن التخلف الفكري، والاكتفاء بتصفيق (غوغاء) تهرف بما لا تعرف .

فحدث إذن تطور واضح في مقامة القرن العشرين، من زاوية الرؤية الاجتماعية، والفكرية، والإصلاحية، وكذلك الأسلوبية أيضا، مع ارتباطها بظروف العصر، في إفرازاته، ونتائجه والموقف من ذلك كله .

(٥)

خاتمــــة :

لقد تعددت الأشكال والألوان في (أدب المقامة) في (النثر العربي الجزائري) القديم والحديث فأسندت الرواية فيها للكاتب بضمير المتكلم، كما أسندت لمجهول، أو لمتخيل، أو لأسماء رمزية، مادية أو معنوية .

وكان (المقام) تقريبا كمجال عام في سائر المقامات، قد اتخذ في بعضها شكل المذكرات، والتاريخ الواقعي، كحال (ابن حمادوش) و (ابن ميمون) و اتخذ بعضها الآخر الطابع الترفيهي الساخر، كالحال مع (الوهراني) مثلما اتخذ جانبا صوفيا لدى (الأمير

عبدالقادر) وفكريا وإصلاحيا بأشكال مختلفة مع (الديسي) و (ابن ابريهمات) و (خبشاش) وفكريا إصلاحيا بشكل ما عند (الإبراهيمي) .

فكانت الوظيفة عموما: تاريخية، فكرية، سياسية، ثقافية، اجتماعية، وترفيهية، تراوح فيها البناء الفني بين التقليد والتجديد، على مستوى الموضوعات والشخصيات، والأسلوب نفسه: الذي كان فيه تباين كبير بين الكتاب، لكنه بدأ جيدا وقويا مع (ابن محرز الوهراني) في (القرن السادس) الهجري، وانتهي كذلك بشكل متقدم نسبيا مع (محمد بن عبدالرحمن الديسي) و (محمد البشير الابراهيمي).

في هذه الرحلة الطويلة لفن المقامة في (الأدب العربي الجزائري إذن بدت فترات انطلاق، وفترات انحطاط، مثلت نماذجها الضعيفة تجربة (ابن حمادوش) بينما مثلت نماذجها الجيدة تجربة (الوهراني) قديما، وتجربتا (الديسي) و (الإبراهيمي) حديثا .

كل هذا وغيره يعكس حيوية الكاتب الجزائري الذي تقعد به الظروف وحدها فتحول بينه وبين الإبداع والتجويد فيه، ومع ذلك كان دائما يحاول تحديها وتجاوزها هي ومن يصنعها في (المحيط السياسي) العام الذي (غالبا) ما كان السبب في إنجاز المحيط السلبي فكريا وأدبيا بالجزائر، منذ آثنى عشر قرنا حافلة بالإحباط، والعطاء رغم ذلك .

الجزائر. الدوحة - في ٧-١-١٤٢٠ هـ/ ٢٤-٤-١٩٩٩ م

* * *

الهوامـش

١ - الأمير عبدالقادر الجزائري، كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ص: ١٠، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٦٦م .

٢ - المصدر نفسه: الصفحة ذاتها .

٣ - بديع الزمان الهمذاني، مقامات الهمذاني، ص ١٠٤، تقديم: محمد عبده، ط ٥ المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٥ .

٤ - الأمير عبدالقادر، كتاب المواقف، ص ١٠ .

(*) من التكعيب، والمقصود بذي الكعوب حسب النص (قناة الرمح المكعبة) ليكون الأسمر صفة (الرمح) .

٥ - الأمير عبدالقادر، كتاب المواقف، ص ١١ .

٦ - المصدر نفسه، ص ١٢ .

٧ - المصدر نفسه، ص ١٣ .

٨ - المصدر نفسه، الصفحة ذاتها .

٩ - المصدر نفسه، س ٢٥ .

١٠ - انظر، د. عمربن قينة، الديسي حياته وآثاره وآبه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠ .

١١ - محمد بن عبدالرحمن الديسي: المناظرة بين العلم والجهل: ص ١٣، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، من دون تاريخ .

١٢ - المصدر نفسه، ص ٢ .

١٣ - المصدر نفسه، ص ٣.

١٤ - المصدر نفسه، ص ٧ .

١٥ - المصدر نفسه، ص ١٣.

١٦ - عمر بن قينة، الديسي حياته، وآثاره وأدبه ، ص ١٩٤.

١٧ - المصدر نفسه، ص ١٩٩.

١٨ - المصدر نفسه، ص ١٩٤.

١٩ - محمد بن عبدالرحمان الديسي، بذل الكرامة لقراء المقامة، مخطوط ، ص ٢.

٢٠ - عمر بن قينة، الديسي حياته وآثاره وأدبه ، ص ٢٨.

٢١ - د. محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ٣٦.

٢٢ - المصدر نفسه، ص ٢٦ .

(**) الاقواس والفواصل من عندنا ، باعتبار أن النص خال منها تماما ، والكتابة الحديثة تقتضي العمل بها عند الضرورة .

٢٣ - المغرب «جريدة» ع، ١١ سنة أولى، الجمعة ١٧ صفر ١٥/١٣٢١، ص ١٩٩، ماي ١٩٠٣.

٢٤ - المصدر نفسه، ع ١٣، سنة أولى: الثلاثاء ٢١ صفر ١٩٠٣/ ١٩ ماي١٣٢١ /١٩ .

٢٥ - جريدة النجاح ع: ٤٠١ , الجمعة : ٨ شعبان ٢ ماي١٣٤٥ /١٩ ماي ١٩٠٣.

٢٦ - النجاح، ع ٤٠٩، ليوم الجمعة ١٦ شعبان ١٩٠٣ .

٢٧ - النجاح، ع ٤٠٩، ليوم الجمعة ١٦ شعبان ١٣٤٥ / ١٣٢١ /١٩٢٧ .

٢٨ - النجاح، ع ٤١٠، ليوم الأحد ١٨ شعبان ١٣٤٥ /١٩٢٧ .

٢٩ - النجاح، ع ٤١١، ليوم الأربعاء ٢١ شعبان ١٣٤٥ /١٩٢٧ .

٣٠ - النجاح، ع ٤١٢، ليوم الجمعة ٢٣ شعبان ١٣٤٥ /١٩٢٧ .

٣١ - النجاح، ع ٤١٣، ليوم الجمعة ٢٥ شعبان ١٣٤٥ /١٩٢٧ .

٣٢ - المصدر نفسه، ع . ١٤ .

٣٣ - المصدر نفسه، ع . ١٥ .

٣٤ - المصدر نفسه، ع . ١٦ .

٣٥ - المصدر نفسه، ع . ١٧.

٣٦ - المصدر نفسه، ع . ١٨.

٣٧ - المصدر نفسه، ع . ١٩.

٣٨ - المصدر نفسه، ع . ٢٠.

٣٩ - المصدر نفسه، ع . ٢١.

٤٠ - محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: ٤٠١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧١ .

٤١ - المصدر نفسه، ص: ٤٠٣ .

٤٢ - المصدر نفسه، ص: ٤٠٤ .

❖ ❖ ❖